

النزعة العقلية في تفكير المفترلة

بقلم

علي فهمي خشيم

ماجستير في الفلسفة الإسلامية
كلية الآداب والتربية - الجامعة الليبية

منشورات دار مكتبة الفكر

للطباعة والتوزيع والنشر

طرابلس - ليبيا

197V

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

جاء الاسلام الى أرض الجزيرة العربية ، فوجد شعباً غلبت عليه البداوة ، ليس له في العلم والحضارة باع طويل . وكان أن لقي أرضاً صالحة للايمان بالغيب ، مهياً لتقبل الرسالة ، مستعدة لقبول الدين الجديد .

وقد اتفق الباحثون على خلو شبه جزيرة العرب في تلك الفترة تقريباً ، من معالم الثقافة والحضارة والعلم المبني على اسس ونظريات وتفكير عقلي بمعناه الخاص .

كذلك لم يكن لدى العرب فلسفة بالمعنى المتعارف عليه - وإن لم يعدموا نظريات ساذجة مبنية على التجارب الشخصية المحدودة ، في مسائل الفلك ، والعبادات الوثنية الساذجة . وكان أهم ما لديهم من معالم التطور والثقافة لغتهم وشعرهم ، فكان اهتمامهم منصباً على الفصاحة والبلاغة نثراً وشعراً . وكان الشعر سجل حياتهم وأخبارهم وحروبهم ، والعاكس لطبيعة مجتمعهم وتكوينه ومثله وقيمه . اما التفكير العقلي - كمنهج - فلم يكن واضحاً أو متداولاً بمعناه المفهوم .

لكن القرآن الكريم ما لبث أن نزل وفيه من الحث على النظر والدعوة إلى التفكير واعمال الذهن في ملكوت الله وآياته الشيء الكثير ، بغية الوصول إلى إقناع الناس بعبادة الإله الواحد الذي تدل على وجوده ووحدانيته مختلف الظواهر الطبيعية والنفسية .

وكانت الآيات من امثال : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون ^(١) » ، وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون ^(٢) » ، « أفى الله شك فاطر السموات والأرض ^(٣) » ، « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ^(٤) ، ، مثل هذه الآيات وغيرها كثيرة وواضحة . لكن الغرض منها كان واضحاً هو الآخر ، إذ هو توجيه النظر نحو الخالق الواحد والإيمان به وبرسوله ، عن طريق المعرفة بالعالم .

كما اننا لا يمكن أن نغفل ما في القرآن الكريم من قوة التحدي للمعاندين والجاحدين ، وموقفه المستثير للخصوم كان بمثابة دافع لمراجعة الأدلة والبراهين بالنسبة لأصحاب الديانات الأخرى ، كما هو حافز لمحاولة النظر واكتشاف مدى صحة الاعتقاد أو بطلانه من خلال تحليل براهين القرآن وحجج مخالفيه .

(١) سورة البقرة آية ١٦٤

(٢) الذاريات آية ٢٠ ، ٢١

(٣) ابراهيم آية ١٠

(٤) فصلت آية ٥٣

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم المرسلين، وبعد:
فإن الناظر في تاريخ الفكر الإسلامي ليرى خضماً متلاطم الامواج متباين التيارات وليجد امامه ضروباً متنوعة من النشاط الذي تختلف بواعثه وآثاره . وهو لا ريب واجد في الفرق الاسلامية العديدة بالذات امثلة كثيرة تظهر ما يتمتع به هذا الفكر من خصوبة وتنوع يسرها له مافي الإسلام نفسه من ثورة على مظاهر الجحود العقلي ودعوة حارة إلى البحث والتمحيص وإعمال الفكر إلى ابعد مداه .

وقد كان المعتزلة إحدى اشهر الفرق التي لعبت دوراً بارزاً في توجيه دفعة الفكر الإسلامي ، وقدمت نموذجاً رائعاً لما ينبغي ان يكون عليه المفكر من إقدام على المسائل الخطيرة وجسارة في البحث والرأي والنقد واستخلاص النتائج القائمة على مقدمات عقلية واضحة . هذا إلى جانب تأثيرهم السياسي والاجتماعي والادبي ، سواء عندما كانوا مقربين من اولى الامر أم بعد النكسة التي أصابتهم بعدئذ .

وإذا قلنا : المعتزلة ، فإن أول ما يتبادر إلى ذهن السامع هم أولئك المفكرون الأفذاذ الذين تحرروا من أسار التقليد وانطلقوا خلف شعلة العقل المتوهجة في بحثهم عن الحق أين كان ، وهم أولئك الرجال العظماء الذين لولا

ما حاق بهم من مصير مؤسف دفعت بهم إليه الأيدي الرعناء لكان للمسلمين شأن غير هذا الشأن ولكان للفكر الإسلامي واقع غير هذا الذي نراه اليوم .

لقد اشتهر أهل الاعتزال - قبل كل شيء - باحتضانهم للعقل واحتفائهم به . فكان لزاماً إذن أن يبرز هذا الجانب الرئيسي في تفكيرهم ، وكان ضرورياً أن نسلط عليه الأضواء ويحلى للناس بقدر الإمكان . ولذا كانت هذا البحث محاولة متواضعة لإظهار ما في تفكير المعتزلة من نزعة عقلية وميل واضح إلى استعمال هذا السراج الإلهي الذي منحه الله للإنسان في موضعه الصحيح .

وبقدر ما في هذا الأمر من أهمية بقدر ما فيه من عسر وصعوبة ؛ ذلك لأن هذه النزعة العقلية ليست مذهباً محدداً مشروحاً في كتب أو أبواب وفصول ، وإنما هي روح تسري خلال آثار المعتزلة على العموم . ومما زاد في هذه الصعوبة أن المعتزلة لم يخلفوا لنا سوى كتب معدودة لا تكفي للبحث والتقصي ، بسبب ما لقيته مؤلفاتهم الكثيرة من احراق وإبادة نتيجة لموجة العداء الشديد لهم التي أعقبت انهيارهم . فكنت مضطراً إلى تلمس بغيتي في ما كتب خصوم المعتزلة للرد عليهم ، وخاصة الأشاعرة .

أما من حيث اتساع الموضوع وتشعبه - بل وتشتته أحياناً - فقد كاد أن يفلت مني جوانبه ، مما دفعني إلى محاولة التضييق والتحديد ، وهذا ما قد يلمس القارئ أثره في بعض الأحيان ، وإلى الاختصار في بعض الجوانب الأخرى كنت أود لو توسعت فيها وتوقفت عندها مدة أطول .

ولعل هذا ناتج عن ارتباط التفكير المعتزلي الديني والفلسفي بتيارات الحياة السياسية والاجتماعية مما يزيد في دائرة البحث والتنقيب وقراءة جوانب عديدة متشابكة لاستنتاج هذه النزعة من خلال تيار الفكر المعتزلي بوجه عام .

ولما كانت النزعة العقلية - كما قلت - روحاً سارية في تفكير المعتزلة ، فقد توجب عليّ متابعة تطورهم التاريخي منذ نشأتهم حتى نهايتهم ، مع التعرض

للعلاقاتهم بغيرهم من ذوي الفكر في الإسلام وسواه ، ومحاولة تلص التآثر والتأثير في مختلف مراحل هذا التطور . كذلك يلحظ القارئ أنني حرصت على تقصّي مقدمات نشأة التفكير العقلي في الإسلام بصفة عامة ، ثم الفرق ، ثم المعتزلة بصفة خاصة - بشيء من الاسهاب - لأنني أرى أن هذا التفكير العقلي لم يبرز فجأة ، وإنما قام بناؤه حجراً فوق حجر ، وتشكل طوراً بعد طور .

كما وجدت نفسي ملزماً - في بعض الأحيان - بعقد مقارنات ، وإن كانت عابرة ، بين المعتزلة وسواهم من المدارس الفكرية بغية الوصول إلى توضيح موقف المعتزلة ببيان مواقف غيرهم منهم في عديد المشكلات الفلسفية والدينية والسياسية وغيرها .

لقد كانت هذه الدراسة في أساسها بحثاً تمهيدياً لأطروحة ماجستير في الفلسفة الإسلامية ، ولم يكن معدّاً للنشر في الأصل ، لكن ابت « دار الفكر » إلا أن تنشره على علاته وهناته ، وهي كثيرة لا تعد ، وعذري فيها أنها خطوات البداية التي تدفع دائماً إلى العثار .

علي فهمي خشم

مصراته في ٢٥ / ١١ / ١٩٦٦ م

بدائيات التفكير العقلي في الإسلام

بدايات التفكير العقلي في الإسلام

يعتمد الدين في أول نشأته على الإيمان القلبي العميق والتسليم بما جاء به دون مناقشة جزئيات الاحكام وتفصيلها ، ولا يكون هناك غالباً مجال للنقد وإبداء الرأي وتحكيم العقل البشري - ممن يعتنقون الدين الجديد - خاصة في المسائل العقائدية الكبرى (١) .

لكن فورة الحماس الإيماني لا تلبث أن تهدأ ، وتبدأ من بعدها الاسئلة : كيف ، ولماذا ، ومتى ، وماذا ؟ .. ومن هنا تتشعب الطرق وتختلف السبل ، وتظهر الفرق الدينية المتباينة ، بل المتضاربة في كثير من الأحيان .

وكما يرى الدكتور ابوريده من أن ما لاحظته بعض المستشرقين - مثل جولدزيهر وماينتز وغيرهما - في هذا الباب صحيح في الجملة . وهو أن البحث في ماهية الاحكام وفي اسرارها والاصول التي تقوم عليها لم يكن في العصر الأول (٢) للإسلام الذي حدث له نفس ما حدث لغيره من الديانات .

فقد نشأت الخلافات بين المسلمين بمجرد موت النبي (ﷺ) . وأغلب مؤرخي الفرق الإسلامية يرجعون الاختلافات بينهم إلى مسائل محددة (٣) تقريباً وإن اختلفوا في الالفاظ والنصوص اختلافاً يسيراً . إلا أن الشهرستاني

(١) أحمد امين - ضحى الاسلام ، ج ٣ ص ٢ ، ٣ ط سابعة .

(٢) ابوريده - النظام : آراؤه الكلامية الفلسفية . ص ١٦٧

(٣) الملل والنحل من ص ١٧ - ص ٢٥ ج ١

يرجع بدايات النظر العقلي - بمعنى استعمال الرأي الشخصي وإبدائه - إلى زمن النبي (ﷺ) وإبان حياته ، فيقول :

« اعتبر حديث ذي الخويصرة التميمي إذ قال : اعدل يا محمد فانك لم تعدل . حتى قال عليه السلام : إن لم أعدل فمن يعدل ؟ .. فعاد اللعين وقال : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ... قولاً بتحسين العقل وتقبيحه وحكماً بالهوى في مواجهة النص واستكباراً على الأمر بقياس العقل .

واعتبر حال طائفة أخرى من المنافقين يوم أحد إذ قالوا: هل لنا من الأمر من شيء ؟ وقولهم : لو كان لنا من الأمر من شيء ما قتلنا هاهنا .

وقولهم : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ... تصريحاً بالقدر .

وقول طائفة من المشركين : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء .

وقول طائفة : أتطعم من لو شاء الله أطعمه تصريحاً بالجبر .

كما ان هناك الذين جادلوا في الله وصفاته وأفعاله (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال) (١) .

فهذا ما كان في زمانه عليه السلام ، وهو على شوخته وقوته وصحة بدنه ، والمنافقون يخادعون فيظهرون الإسلام ويبطنون الكفر (٢) .

ثم يضيف الشهرستاني الى ذلك الخلافات الواقعة في حال مرض النبي وبعد وفاته ويصفها بأنها خلافات (اجتهدية) .. منها :

أن رسول الله قال وهو مريض: إيتوني بورق وقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي . فعارض عمر بن الخطاب متعللاً بمرض الرسول (ﷺ) .

(١) سورة الرعد آية : ١٣

(٢) يلاحظ ان مؤرخي العقائد المسلمين ينحون باللائمة دائماً على المنافقين واليهود ويرمونهم بأنهم سبب الخلاف ونشأة الفرق المتصارعة في الاسلام .

والخلاف في تسمير جيش أسامة ، وإنكار عمر لنبى ، والاختلاف في موضع دفنه ؛ مكة أم المدينة أم بيت المقدس ، وفي لتوارت عنه ، وفي قتال مانعي الزكاة ، وفي نص ابى بكر على عمر في الخلافة ، واختلافات في الارث والدية وغيرهما . ثم شغلت المسلمين الفتوح ، واتفقوا في تولية عثمان لكنهم اختلفوا في تصرفاته ، ثم كانت خلافت علي مع عائشة ومعاوية وحرب الجمل وصفين - وظهور (الخوارج) و (الغلاة) وفي مقدمتهم عبدالله بن سبأ - وكانت هذه - كما يقول - بداية الضلالة والبدعة .

ويتفق ابو الحسن الاشعري مع الشهرستاني - وان كان اقل تفصيلا - ويجعل اول خلاف بين المسلمين في مسألة (الامامة)^(١) بينما يجعله الاسفراييني^(٢) في وفاة النبي (ص) ... ثم تعدد باقي الاختلافات .

يعلق ابو مظفر الاسفراييني بقوله :

« إن الخلاف لا يكون خطراً إلا اذا كان في اصول الدين »^(٣) ، ولم يكن اختلاف بينهم في ذلك ، بل كان اختلاف من يختلف في فروع الدين ، مثل خلاف الفرائض فلم يقع خلاف يوجب التفسير والتبري وظهر في أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية وكانوا يخوضون في القدر والاستطاعة ، كمعبد الجهني وغيلان الدمشقي والجمع بن درهم . وكان ينكر عليهم من كان قد بقى من الصحابة كعبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس وعبدالله ابن ابى اوفى وجابر وأنس وأبي هريرة وعقبة بن عاصر الجهني وأقرانهم »^(٤) .

اما عبد القاهر البغدادي فيقول :

(١) مقالات الاسلاميين . ص ٢٩ - ٦٤

(٢) التبصير في الدين . ص ٢٥ - ٢٩

(٣) فليلاحظ القارىء تشابه الخلافات الدينية باختلافات السياسية فيما سبق .

(٤) التبصير . ص ٢٩ .

« كان المسلمون عند وفاة رسول الله (ﷺ) على منهاج واحد في اصول الدين وفروعه ، غير من اظهر وفاقاً وأضمر نفاقاً » .

وبعد أن يعدد الخلافات التي ذكرناها يقول : « ثم حدث في زمن المتأخرين من الصحابة خلاف القدريّة في القدر والاستطاعة من معبد الجهني وغيلان الدمشقي والجعد بن درهم . وتبرأ منهم المتأخرون من الصحابة كعبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله وأبي هريرة وابن عباس وأنس بن مالك ... إلخ » (١) .

فها نحن ندرك مما تقدم أن هناك (اختلافات) ، حصلت في زمن النبي وبعده بقليل في عديد المسائل الدينية والسياسية ، ولا يمكن بحال أن يكون هناك خلاف إلا إذا كانت (وجهات نظر) متعارضة قد ظهرت ، معبرة عن رأي اصحابها الخاص وموضحة لمواقفهم من المشكلات المعاصرة لهم . وهي وجهات نظر بسيطة لم تبلغ مبلغ التعقيد بعد . كما لاحظنا بدايات لآراء تفس العقيدة والاصول الدينية مثل القول بالقدر في أيام أواخر الصحابة الذين اتخذوا موقف المعارضة لمثل هذا الاتجاه - حسب قول المؤرخين من أهل السنة والأشاعرة .

القرآن الكريم كمصدر للتفكير العقلي في الاسلام :

بقدر ما كان القرآن كتاب عقائد وعبادات ، فهو كتاب فيه من الدعوة الى النظر العقلي الشيء الكثير .

إذ لم يكن القرآن كتاب مواعظ اخلاقية فقط أو تاريخاً أنزل كعبرة عن قرون ماضية ، وإنما هو كتاب ميتافيزيقي وأخلاقي وعملي ، وضع الخطوط الرئيسية للوجود كله . فهو كتاب الكون منذ نشأته إلى فنائه (٢) .

(١) انفرق بين الفرق ص ١٤ - ١٩

(٢) د . ع . سمير النشار في (نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام) ج ١ ص ٢

ومن الخطأ البالغ انه يقال أن القرآن خلو من النظريات الكونية والفلسفية وانه لم يرتد آفاق الوجود لكي يحددها في صورة نهائية ^(١) .

! فالقرآن الكريم إذن كان أحد المصادر الكبرى - إن لم يكن اكبرها - للنزعة العقلية ، بحثه على تحكيم العقل ، وبالنظرة العقلية غير الاسطورية أو الخرافية التي جاء بها . بل وبتحديه القوي لحجج معارضية ، ومطالبته إياهم بأن يأتوا ببرهانهم إن كانوا قادرين ، لدفع ما في القرآن من حجة بالغة ودليل قاطع . كذلك بلغته وطريقة خطابه أيضاً ، وبما فيه من آيات محكمة ومتشابهة كانت عاملاً من عوامل الاختلاف في الرأي والتفسير والاجتهاد .

يقول د . محمد البهي : « إن لغة القرآن ولغة الحديث سبب ثان يضاف إلى الخلافات السياسية السابقة في إيجاد التحزب في الرأي والتفرق في فهم العقيدة ^(٢) أما الآيات المتشابهة في القرآن فقد كانت اكبر عوامل الاختلاف والفرقة ، إذ جاءت آيات محكمات معبرة عن الحقائق المطلقة والكلية ، ومتشابهة عن النسبيات أو الظاهريات أو المجازيات (كتاب احكم آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) ^(٣) . وفي الثانية كان الاختلاف حتى سار كل في طريق ^(٤) .

الخلافات السياسية :

يرى الكثيرون - وهم على حق - أن ارتباط الدين بالسياسة كان أحد أسباب نشأة الفرق الاسلامية .
فالى جانب التيارات المتصارعة داخل الكيان العربي كانت هناك قوى

(١) د . علي سامي النشار في (نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام) ج ١ ص ٢ .

(٢) الجانب الألهي من التفكير الاسلامي ص ٣٤

(٣) سورة : هود آية : ١

(٤) د ٠ ابوريدة ومحاضراته في علم الكلام بآداب الجامعة الليبية للعام الجامعي ١٩٥٩

- ١٩٦٠ م .

خارجية - فارسية ويهودية ونصرانية - أثرت تأثيراً واضحاً في خلق مذاهب دينية - سياسية تسخرها لغايات بعيدة، بينما ظاهرها الدين والنظر والاجتهاد العقلي المحض .

وهذا مما يجعل مهمة الباحث في نشأة الفرق الإسلامية دقيقة ومعقدة ، إذا ما أراد تقصي عوامل هذه النشأة من زاويتها تلك ، وليس هذا موضعه .

البدايات الأولى للمُعْتَزِلَة

البدايات الأولى للمعتزلة

النشأة و الاتصال

النشأة :

١٠ يحلو للكثيرين من مؤرخي الفلسفة الإسلامية أن يعودوا بنشأة المعتزلة إلى أيام الحسن البصري ، وبالتحديد إلى ظهور واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد . لكن الحق أنه لا يمكن أن يكون الامر بهذه السهولة والبساطة ، إذ ليس من المعقول أن يقوم مذهب متكامل بين ليلة وأخرى ، وأثناء جلسة واحدة ، وإثر اختلاف بسيط في مسألة هي مشار جدل واهتمام عامة المسلمين ، وهي مسألة مرتكب الكبيرة .

إن لمذهب الاعتزال جذوره العميقة ، إذا ما تتبعناه تاريخياً وسياسياً . فقد بدأ منذ الفتنة مذهب (الاعتزال) بمعنى الابتعاد والانفصال أو الحياء ، ثم اختلط المعنى الديني بالمعنى السياسي حتى أيام واصل .

كما أنه من الناحية المذهبية العقائدية كانت هناك عدة تأثيرات سابقة من الذين ذهبوا إلى القول بالقدر خيره وشره من الإنسان ، واتصالات بالمجبرة من اصحاب الجهم بن صفوان وتأثر بهم في مسألة خلق القرآن ونفي الرؤية .

يقول نبرج : « إن الاعتزال أول ما نشأ من القدرية ، وهي فرقة من فرق السلف كانت تقول بالقدر خيره وشره من العبد ، وباختياره في أفعاله ليعاقب عليها أو يثاب (١) » .

(١) مقدمة كتاب (الانتصار) ص ٩ :

ويقول الشهرستاني : إن الاختلافات في الأصول حدثت في آخر أيام الصحابة حين ظهرت بدعة معبد الجهني وغيلان الدمشقي ويونس الاسواري في القول بالقدر ، وإنكار إضافة الخير والشر الى القدر ونسج على منوالهم واصل بن عطاء (١) .

ويورد طاسن كبرى زادة في (مفتاح السعادة) : قيل كان اول من احدث مذهب الاعتزال واخترعه الإمام ابو هاشم وأخوه الإمام الحسن بن محمد بن الحنفية . كما يثبت طاسن كبرى زادة ان واصلا أخذ عن ابن هاشم عبدالله ابن محمد بن الحنفية (٢) .

ويقول ابن خلدون في مقدمته : « ثم لما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر الانحاء ، وألف المتكلمون في التنزيه ، حدثت بدعة المعتزلة (٣) » .

وابن المرتضى في (المنية والأمل) يذهب إلى أن مذهب الاعتزال يرجع الى الصدر الاول للاسلام ، وعدّ من الطبقة الاولى للمعتزلة الخلفاء الاربعة وعبدالله بن عباس وعبدالله بن مسعود وغيرهم ... والذي يظهر من كلامه انه يريد ان يعد معتزلياً كل من ذكر له من الصحابة والتابعين قول يدل على ان الإنسان حر الإرادة او يدل على انه يرى الحسن والقبح العقليين ، لانه استدل مثلاً على أن ابا بكر وابن مسعود يريان مذهب الاعتزال بأنهما قالا في المرأة المفوضة في مهرها برأييهما ، اي انها يقولان بالحسن والقبح العقليين ، ولذلك حكما بالرأي (٤) .

« لكن أغلب المؤرخين يقرنون بداية ظهور مذهب الاعتزال بالواقعة الشهيرة التي حدثت في مجلس الحسن البصري وانفصل ، او اعتزل ، أثرها واصل

(١) الملل والنحل : ج ١ ص ٢٩ .

(٢) تهديد لتاريخ الفلسفة الاسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق . ص ٢٨٧

(٣) المقدمة ص ٦٤ ع ٤ . التجارية .

(٤) أحمد امين / فجر الاسلام ص ٢٩٦ .

وعمرو وطفقا يدعوانه لمذهبهما الجديد .

يقول البغدادي ^(١) : « ثم حدث أيام الحسن البصري خلاف واصل بن عطاء الغزال في القدر وفي المنزلة بين المنزلتين ، وانضم اليه عمرو بن عبيد بن باب في بدعته ، فطردهما الحسن عن مجلسه ثم فاعتزلا الى سارية من سوارى مسجد البصرة ، فقبل لهما ولأتباعهما (معتزلة) لاعتزالهم قول الأمة في دعواهم ان الفاسق من امة الاسلام لا مؤمن ولا كافر » .

ويذكر أبو مظفر الاسفرايني شيئاً من هذا القبيل ^(٢) . ويذكر نيهج القصة غير مفصلة مبيناً أن عمرأ وواصل (وسعا مجال القدريه وأدخلا فيها ملاحظات جديدة) ^(٣) .

لكن الشهرستاني يروي القصة كاملة حيث يقول : ^(٤) « والسبب في القول بالمنزلة بين المنزلتين انه دخل واحد على الحسن البصري فقال : يا امام الدين ! لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الايمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الايمان ، ولا يضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة ، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً ؟ . .

فتفكر الحسن في ذلك . وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً ، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر . ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من اصحاب الحسن . فقال الحسن : اعتزل عنا

(١) الفرق بين الفرق . ص ٢٠ - ٢١

(٢) التبصير في الدين . ص ٢٩

(٣) مقدمة (الانتصار) . ص ٤٩ - ٥٠

(٤) الملل والنحل . ص ٦٧ - ٦٨

واصل . فسمي هو وأصحابه معتزلة » .

من هذه القصة يتضح لنا ما يلي :

(١) أن هناك موضوعاً شغل تفكير المسلمين وهو موضوع مرتكب الكبيرة .

(٢) أن هناك صراعاً ومواقف مختلفة منه . فالخوارج يكفرونه ويسمونهم (كافرين) والمرجئة يعتبرونه (مؤمنين) والحسن البصري يسميه (منافقاً) بينما سماه واصل (فاسقاً) باسمه المعروف به ، لا مؤمن ولا كافر .

(٣) أن واصل قد كوّن آراءه قبل هذه الحادثة أو السؤال ، وإلا لما سبق أستاذه في الإجابة ، ولما قام من فوره بقرره رأيه ويشرحه لو لم يكن مستعداً لذلك .

(٤) أن هذه الواقعة كانت بمثابة (الإعلان الرسمي) لمذهب المعتزلة وانفصال قادتهم عن الحسن البصري الذي تشربوا منه بلا ريب بعض آرائه .

الاتصال :

١ - عرضنا - في إيجاز - - لنشأة المعتزلة ، وقررنا أن لمذهب الاعترال بدايات سياسية ودينية قبل الاعلان الرسمي عنه في حلقة الحسن البصري على يد واصل وعمرو بن عبيد . وينبغي علينا الآن أن نعرض لصلات المعتزلة قبل الاعلان وبعده - بمختلف التيارات والمذاهب والديانات حتى نرى مقدار تأثيرهم وتأثيرهم - خصوصاً في ميدان التفكير العقلي ، وتغليب العقل على سواه . وقد يحلو لكثيرين من دارسي الفلسفة الاسلامية أن يقرروا أن المتكلمين - وفي مقدمتهم المعتزلة - لم يتأثروا بأية تيارات خارجة عن صلب القرآن والاسلام بصفة عامة ، وأن ما بحثوه من مشكلات واختلفوا فيه - كمشكلة القدر ومدى فاعلية العبد والاختيار والسمع والعقل - شيء يعرض لجميع العقول الانسانية ، ولجميع الديانات بعد مرحلة معينة من القبول والنضج .

لكن هذا رأي فيه كثير من التعسف ، إذ لا يستطيع امرء انكار تداخل

الثقافات واتصالها بعضها ببعض الآخر ، وتأثرها ايضاً - ولو في الحطة والاسلوب .

كذلك يقف في الجانب الآخر من يقول بأخذ المتكلمين - وخاصة المعتزلة - عن غيرهم من الفلاسفة واليهود والنصارى ، بل والصابئة والزردشتية والمناوية . وهؤلاء فريقان :

مؤرخو الفكر الإسلامي الأقدمون - وفعلوا هذا بقصد تشويه صورة المعتزلة - وهم في الأغلب خصوم لهم - بنسبة آرائهم للمخالفين في الدين والعقيدة والمذهب ، وتحقيرهم لدى العامة . والفريق الثاني هم المستشرقون والمهتمون من الغربيين بالدراسات الإسلامية ، بعضهم عن حسن نية وبحث من أجل العلم والحق ، وبعضهم ليدلل على عدم أصالة الفكر الإسلامي . وهم في هذا جد مخطئون : إذ ماذا يضير الفكر الإسلامي أن يأخذ عن غيره بعض المسائل المشتركة بين العقول ، أو يأخذ أسلوب معالجته لهذه المسائل ، اذا كان غيره سيأخذ عنه هو الآخر بحكم التطور البشري وحتمية تكون الحضارات ؟ وما دامت المسائل الكبرى تابعة من كتاب الاسلام الأول ، القرآن الكريم ، ناقشها احياناً بإفاضة ، أو أشار إلى بعضها إشارة موجزة ، تاركاً العقول تعمل عملها الذي خلقت من اجله ، وهو التفكير والتدبر والنظر ..؟

إن المسائل العقلية شيء يعرض لكل العقول ، وليس من ضير في ان يتفق فلاسفة الاسلام ومفكروه مع غيرهم في نتائج البحث ، وإن اختلفوا في السبل والمنهج ، أو العكس .

ز على كل حال ، فإنني أميل إلى القول بان المعتزلة كانوا من سعة الافق والاستعداد لتلقي العلم والمعرفة وإشعاعها على درجة كبيرة جداً ، مما يسر لهم دراسة الفلسفة اليونانية ، والمذاهب الفارسية والهندية ، والديانات اليهودية والنصرانية ، الى جانب احتكاكهم عن طريق التأييد أو الهجوم بالمذاهب التي نشأت في حضن الاسلام من رافضة وخوارج ومرجئة وشيعة وغيرهم .

يقول الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة عن النظام مثلاً : « ونعرف عنه أنه أمعن في قراءة كتب الفلاسفة وأنه كما يقول ابن المرتضى حفظ القرآن والتوراة والانجيل والزبور وتفسيرها ^(١) .

(١) ابراهيم بن سيار النظام : آرائه الكلامية والفلسفية . ص ١٠

المؤثرات في اتجاهات
المُعْتَزِلَةِ الْعَقْلِيَّةِ

المؤثرات في اتجاهات المعتزلة العقلية

القرآن الكريم - مؤثرات اسلامية - مؤثرات اجنبية

لا بأس لدينا هنا من أن نشير إلى المؤثرات التي حددت خط سير المعتزلة ومنهجهم العقلي ، ما دام بحثنا ينصب على النزعة العقلية لديهم ، حتى نكون على بينة من أمرنا وامرهم ما دمنا قد قررنا ان نشأة المعتزلة لا تخلو من تأثر على أي حال .

وأول ما تجدر الإشارة اليه في هذا المجال - وفي مجال علم الكلام بصفحة عامة - هو :

القرآن الكريم

وقد أشرنا في ايجاز الى ما جاء في القرآن الكريم من إشارة بالعقل وتمسك بتحكيمة في أي خلاف أو صراع ؛ واللجوء اليه في معرفة الخالق سبحانه وحقوقه على عباده . فالقرآن - كما سبقت الإشارة - كتاب فيه من اسباب النظر ودواعي التفكير الشيء الكثير . بل هو يحتوي على آراء ونظريات شاملة في الكون والوجود ومسائل ما وراء الطبيعة ، إلى جانب ما أتى به في ميدان العلم الطبيعي (أو ما نسميه بالتجريبي اليوم) مما وسّع الأفق أمام

إعمال الفكر عند المسلمين . فالقرآن كتاب ميتافيزيكي ، علمي ، فضلاً عن كونه كتاباً دينياً يحتوي على العبادات والشعائر الدينية وكيفية أدائها . وهو زيادة على ذلك بعيد كل البعد عن الاساطير الخرافية ، او القصص الخيالية التي نجد الكثير منها في كتب الديانات الأخرى . بل تو شك ان تعتمد عليها اعتماداً كلياً .

وكما يقرر الدكتور ابو ريدة من أنه ينبغي ألا نهمل أثر القرآن في تطور مباحث المتكلمين وفي مناقشتها . وقد جاء في القرآن مسائل هي من أوائل ما عالجها اهل الكلام كمسائل القدر والتكيف والاختيار وفعل العبد ومسؤوليته^(١)

لكن المعتزلة عندما وجدوا آيات من أمثال : (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها^(٢)) ، (كل نفس بما كسبت رهينة)^(٣) ، (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)^(٤) (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدي فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها) .^(٥) ما لبثوا أن أحسوا بأن هناك مجالاً واسعاً للحرية الانسانية في افعال العبد وقدرته على التصرف والفعل ، على الأقل لتبرير العقاب والثواب .

هم وجدوا في القرآن الكريم ترحيباً بأن يكون للانسان قسط وافر من حرية التصرف والتفكير .

فإذا ما اصطدموا بآيات تدل على الجبر والتقييد والحد من هذه الحرية من امثال : (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء)^(٦) ، ان الذين

(١) النظام — ص ٩٦

(٢) سورة فصلت . آية ٤٦

(٣) سورة المدثر . آية ٣٨

(٤) سورة الكهف . آية ٢٩

(٥) سورة يونس . آية ١٠٨

(٦) سورة المدثر . آية ٣١

كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم (١) ، (فمن يرد الله أن يضلّه يجعل يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) (٢) لجأوا إلى التفسير والتأويل للآيات حتى تتفق مع ما يقضي به العقل ، والتأويل لداعٍ عقلي جائز .

مؤثرات اسلامية :

برزت إلى جانب الاحداث السياسية العميقة الغور ، احداث اعتقادية جدلية - بحكم التطور العقلي - من أمثال الحديث في القدر والاختيار ، ورؤية الله تعالى ، وخلق القرآن ومرتكب الكبيرة ... الخ . مختلطة بالسياسة والصراع على الامامة او الخلافة .

وكان طبيعياً - بعد أن فرغ المسلمون من الفتح او كادوا - أن يتفرغوا للمشاكل الجديدة ، اجتماعية ودينية وسياسية . فقد دخلت حياتهم عادات وتقاليد غريبة - بحكم اختلاطهم بالفرس وغيرهم من الأمم - وظهر في المجتمع فساد وانحلال سبب ضيقاً للمتمسكين بالدين وأثار جدلاً عنيفاً وخاصة في مسألة مرتكب الكبيرة . وفي الميدان السياسي كان الصراع محتتماً حول الخلافة أو الامامة . فنشأت فرق الخوارج والمرجئة وكوّن واصل رأياً جهر به في مرتكب الكبيرة ، وهو القول بالمنزلة بين المنزلتين .

ولا شك أن واصلاً قد اتصل قبل أن يدلي برأيه (الجديد) بكثيرين وأخذ عنهم . منهم ابو هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية الذي قيل انه كان أول من أحدث مذهب الاعتزال واخترعه (٣) والذي تربى واصل في أحضانه (٤)

(١) سورة البقرة. آية ٦ - ٧

(٢) سورة الانعام آية ١٢٥

(٣) طاش كبرى زادة في (مفتاح السعادة) نقل عن الشيخ عبد الرزاق. تهيد ... ص ٢٨٧

(٤) د. د. نشار - نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام . ص ٢٦٦

واخذ عنه ، والحسن البصري الذي كان يتفق معه وعمر بن عبيد في القول
بالقدر - ولا شك ان تأثير الحسن كان كبيراً في هذه النقطة بالذات ، وان
قيل انه رجع عن هذا القول .

كما ان من المحتمل أن يكون واصل قد اتصل بغيلان بن مسلم الدمشقي
مولى الامويين ^(١) ، وكما يروي الشهرستاني ان المعتزلة في قولهم بالقدر إنما
سلكوا في ذلك مسلك معبد الجهني وغيلان الدمشقي ^(٢) .

اما دي بور ^(٣) فيفكر انه « اخذت تتميز بالتدرج مذاهب اسلامية
متسقة اكثرها انتشاراً - ولا سيما بين الشيعة - مذهب المعتزلة الذين جاءوا
خلفاء للقدرية وأقاموا مذهبهم على النظر العقلي » .

ونحن نعلم ان هناك طوائف كانت تقول بالقدر خيره وشره من العبد قبل
ظهور المعتزلة .

وجاء في الفرق بين الفرق ^(٤) : أن هؤلاء اتباع واصل بن عطاء رأس
المعتزلة وداعيتهم الى بدعتهم بعد معبد الجهني وغيلان الدمشقي .
أما عن صلة المعتزلة بالحسن البصري - الصوفي المحدث العالم الكبير - فهي
لا تخفى على أحد . فقد كان تتلمذه واصل وعمر بن عطاء ، وبعض مواقفهم -
خاصة في رسالته الى عبد الملك بن مروان - تبرهن على اتفاقه في الرأي مع
تلميذه وان لم يجهر به ويدع اليه . وذلك اللين واليسر الذي أخذ به تلميذه
الذي (اعتزله) يدل على رضاه ، او على الاقل عدم غضبه منه . كذلك
قوله لمعبد الجهني وعطاء بن يسار حين حدثاه عن ظلم بني امية وقولهم ان
هذا بقضاء الله وقدره : « كذب أعداء الله » ^(٥) . وأخيراً نرى المعتزلة تجتمع

(١) نفى المصدر ص ٢٦٩

(٢) الملل والنحل ص ٦٦

(٣) تاريخ الفلسفة في الاسلام . ص ٩٧ ط رابعة .

(٤) الفرق بين الفرق . ص ١١٧

(٥) الملل والنحل . ص ٦٤ ج ١

حول الحسن البصري الذي يصرح بأن كل شيء بقضاء الله وقدره (الامعاصي) (١)
كل هذا يثبت تحرر الحسن البصري وميله الى القول بالقدر ، ويثبت تأثيره
في المعتزلة وتضامنه معهم ولو من وراء ستار .

هناك شخصية اخرى لها وزنها، ولها تأثيرها أيضاً في تكون آراء المعتزلة
وان وقفت منهم على طرفي نقيض ، وأعني بها الجهم بن صفوان .
كان الجهم جبرياً خالصاً ، والمعتزلة قدرية . لكن المعتزلة آمنت بالتأويل
العقلي واعتبار حجة العقل مصدر المعرفة وهذا ما فعله الجهم (٢) .

الاتفاق في التأويل العقلي اذن كان العلاقة الرابطة بين المعتزلة والجهمية .
ايجاب المعارف بالعقل قبل ورود السمع قاعدة يضعها جهم وتفسيرها :
العقل يوجب ما في الاشياء من صلاح وقبح وفساد وحسن . العقل وحده هو
الذي يفصل هذا قبل ان ينزل الوحي مقررأ ان هذا الشيء حسن وهذا
قبيح . ولعل هذا الاصل الذي وضعه الجهم اتخذته المعتزلة فيما بعد وبنوا
عليه المقولة المشهورة في المعرفة والتحسين والتقبيح العقليين .

وكان اتصال واصل يجهم عن طريق حفص بن سالم في ترمذ بخراسان ،
وكانا يتفقان ايضاً في القول بنفي الصفات ، وخلق القرآن ، واختلفا في القدر .
وكان عجيباً ان يتفق الخصمان ويلتقي الضدان ، حتى نجد ان مذهب (سكون
اهل الخلدن) لدى ابن الهذيل قريب من مذهب جهم (٣) .

لكن المعتزلة كانوا يتهربون من إثبات صلاتهم بجهم وينفونها ، بينما يعمل
خصومهم على هذا الاثبات ، وان كان قد ثبت بالتاريخ أن المعتزلة القديمة قد
ناظرت الجهمية وتبرأت منها (٤) .

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام . ص ٣٠٦

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٣

(٣) الملل . ص ٧٣

(٤) نيرج في مقدمة (الانتصار)

كانت أيضاً هناك صلات (غير ودية) بين المعتزلة وبين طائفة المحدثين وكان المحدثون يحنقون على المعتزلة اشد الحنق ، لأن هؤلاء المعتزلة كانوا لا يدخرون وسعاً في تكذيبهم وشن الحملات عليهم ، لأن اغلبهم لا ينقد احاديثه أو هي تتعارض مع العقل السليم ، أو يذهب مذهب التشبيه ، وفي مقدمتهم المحدث مقاتل بن سليمان الذي عاش في زمن واصل وعمر و .

كما اتخذ المعتزلة موقف الهجوم على الثنوية المتسترة والسمنية والرافضة ، وغيرهم ، وضد الخوارج والمرجئة . فكانت العلاقات بينهم وبين هذه الطوائف مشحونة بالعداء .

والحق أن بعض اهل اصول المعتزلة كانت موضوعه اولاً للرد على الرافضة والملاحدين . والواقع أنهم لم يزالوا على أشد عداوة لهم حتى آخر امرهم (١) .

ثم هناك اخيراً السلفيون أو أهل السنة . . وهم الطائفة الكبرى التي تصارعت مع المعتزلة ونازلتهم حتى هزمتهم في نهاية الامر بانضمام الامام ابي الحسن الأشعري - المولى السابق - اليهم ورجوعه عن آرائه الاعتزالية الى مذهب اهل السنة مما شكل ضربة عنيفة للمعتزلة ومذهبهم . . وهذا ما سنفرد له قسماً خاصاً بإذن الله

كان السلف يرون في اتباع الكتاب والسنة ، دون تأويل أو تفسير ، وفي التسليم بالقضاء والقدر ، وان العبد مسير حسب مشيئة الله وإرادته ، وفي البعد عن المراء والجدل - الا اضطراراً - في العقائد وفي المسائل الدقيقة الحساسة . . يرون في هذا منجىً للمسلمين والاسلام ، متمسكين بالقرآن والحديث والسنة .

وكان المعتزلة على النقيض ، يغلبون العقل في التأويل على النقل ، ويتمادون في هذا التغليب الى ابعد مدى . وهذا ما اثار نار الخصومة بين الفريقين . وهي خصومة - على ما فيها من تفريق بين المسلمين - الا أن لها فوائد لا تنكر

(١) نفس المصدر . ص ٥٦

تتمثل في هذه الثروة الكلامية الرائعة التي خلفها لنا أجدادنا ، وفي هذا الجدل الذي ازال الصدا عن العقول واطلقها باحثه ناقدة متفحصة في سبيل الحق الاسمي الذي طلبه الجميع .

فصلات المعتزلة اذن كانت كبيرة بمختلف الطوائف والفرق داخل الجماعة الاسلامية ، وان تباينت طبيعة هذه الصلات . فهي تارة علاقات اتفاق والتقاء في وجهات النظر ، وطوراً علاقات نفور وتطاحن وصراع . لكن الاحتكاك والتأثر والتأثير كان موجوداً على اية حال ، والمتتبع لهذا الموضوع يجد مصداق ما نقول .

مؤثرات اجنبية :

والآن اشعر بأنه ينبغي علينا ان نعرض للمؤثرات الأجنبية في الفكر المعتزلي ، خاصة فيما يتعلق بالنزعة العقلية لديهم .

ونحن وان كنا نتفق مع الاستاذ احمد امين والدكتورين علي سامي النشار ومحمد البهي ومن سار مسارهم ، في ان المشكلات التي عرضت للفكر الاسلامي هي اسلامية النشأة والبيئة ، الا ان هذا لا يمنع من القول بان طرق او سبل او خطة معالجة هذه القضايا لا بد ان تتشارك وتتداخل ، بحكم كونها مشكلات انسانية ايضاً تعرض لكل عقل انساني .

ولا بد ونحن ندرس طائفة كبرى من رجال علم الكلام الذي هو الى الفلسفة اقرب - من ان نرى علاقة هذه الطائفة بالفلسفة اليونانية وسواها من الفلسفات ذات الاثر الكبير في الفكر والثقافة العربيين . كذلك ، ونحن ندرس علم الكلام المقابل للاهوت - يجب علينا ان نرى العلاقة بين مشكلات الديانتين النصرانية واليهودية وسواهما وبين المشكلات الكلامية الاسلامية . والا كنا بغير هذا نبعد كثيراً عن الصواب . اذ لا شك ان نمو علم الكلام متصل باتساع الافكار بين المسلمين وازدياد معرفتهم بالثقافات الأجنبية على اختلاف الوانها . كما ان

المتكلمين - ومن اوائلهم المعتزلة - هم اول من قرأ الثقافات الاجنبية وتأثروا بها ^(١) .

اولاً : الفلسفة :

يلاحظ الدارس أول ما يلاحظ أن أغلب مؤرخي المعتزلة الأقدمين - واكثرهم من اصل السنة او الاشاعرة - يرجعون جل أفكار قادتهم الى الفلاسفة اليونانيين خاصة ، كأنما (يتهمونهم) بالأخذ من مصدر غير اسلامي ، ويوحون للقارئ بمخروج المعتزلة عن دائرة الدين ما داموا قد سمحوا لأرائهم ان تكون بفضل الفلسفة (الملحدة) .

في « الملل والنحل » لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني مثلاً يكاد يختم كل جملة عن أحد شيوخ المعتزلة بارجاع آرائه للفلاسفة ، وانه موافق لهم في كيت وكيت ، وأخذ عنهم كذا وكذا .

فهو يقول مثلاً : وإنما شرع أصحاب واصل فيها (مقالة نفي الصفات) بعد مطالعة كتب الفلاسفة . ^(٢) وعن ابن الهذيل انه اقتبس هذا الرأي من الفلاسفة الذين اعتقدوا ان ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه ص ٧١ وان ابراهيم النظام قد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة وخط كلامهم بكلام المعتزلة - ص ٧٧ ، وأخذ مقالة (الاصلح في الآخرة) عن قدماء الفلاسفة - ص ٧٨ ، كما وافق الفلاسفة في نفي الجزء الذي لا يتجزأ - ص ٧١ ، وأخذ مقالته في الظهور والكمون من أصحابها من الفلاسفة - كما ان أحمد بن حابط ^(٣) والفضل الحداثي طالعا كتب الفلاسفة - ص ٨٨ - ويقرر الشهرستاني أن بشرأ بن

(١) ابراهيم بن سيار النظام - د . ابو ريذة ص ٦٨ ، ٦٩

(٢) الملل ص ٤٥

(٣) أر خابط او حائط .

المعتمد اخذ عن الطبيعيين قوله بتولد اللون والطعم والرائحة .. كما اخذ معمر ابن عباد السلمي رأيه في حقيقة الانسان عن الفلاسفة - ص ٩٩ ، وكان الرجل يعيل الى الفلاسفة - ١٠١ .

ونفس هذا الكلام يقوله عن الجاحظ ، الذي مذهبه هو بعينه مذهب الفلاسفة - ص ١١٥ ، ويقول عن ابي الحسين البصري إنه فلسفي المذهب هو الآخر .

هي تهمة إذن أن يطلع المعتزلة على الافكار والنظريات الفلسفية ، لكنها (تهمة) ذات فائدة عظيمة في تاريخ الفكر الاسلامي .. فقد غذته بأساليب جديدة للبحث ومنهج ، وقدمت له خطة عقلية زادت من قوته وثباته ، وامتدته بحجج يتقي بها الهزيمة عند النزال ..

وكان طبيعياً ان يتدارس المعتزلة الفلسفة ، وهم الذين عاصروا حركة الترجمة العظيمة ، وكان لهم وزنهم أيام المنصور ، كما كانوا أهل الحول والطول أيام المأمون .. وكان بديهياً أن تظهر التأثيرات الفلسفية في امثال ابراهيم ابن سيار النظام وابن الهذيل العلاف وابن عثمان عمر بن بحر الجاحظ وغيرهم من فطاحل المعتزلة وكبارهم .

يقول ابن خلدون ^(١) : « ثم كان من بعد (أرسطو) في الاسلام من أخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل الا في القليل . » ولعل المعتزلة كانوا في مقدمة دارسي أرسطو وإن خالفه بعضهم وعارضوه .

ويقول : « ثم خلط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بموضوع الآلهيات ومسائله بمسائلها فصارت كأنها فنٌ واحد . »

اما المقرئ فيذكر انه اشتهرت مذاهب الفرق من القدرية والجهمية والمعتزلة والكرامية والروافض والخوارج والقرامطة والباطنية ، حتى ملأت

(١) المقدمة . ص ٩٥ ط المكتبة التجارية

الارض ، « وما منهم الا من نظر في الفلسفة وسلك من طرقها ما وقع عليه اختياره . » (١)

ويقرر نيرج ان المعتزلة قامت بأشد ما احتاج اليه الاسلام في ذلك العصر وهو الاستعانة بما استعانت به الديانات الاخرى من اسلوب متين وطريق فلسفي لابرار ما يمكن في الدين من القوى والفضائل (٢) .

كما كان المعتزلة اسرع الفرق للاستفادة بالفلسفة اليونانية وصبغها صبغة اسلامية ، والاستعانة بها على نظرياتهم وجدالهم . (٣)

فاستعانة المعتزلة بالفلسفة اذن امر مقرر - سواء في الاخذ بأسلوبها في الجدل والكلام - وهذا ما نصرهم على كثير من خصومهم وجعلهم مبرزين في مجال الكلام - أو في الاخذ ببعض الآراء الفلسفية المحصنة ، كما يظهر عند النظام وابن الهذيل والجبائي والجاحظ وغيرهم ، من امثال مسألة الكمون ، وسكون اهل الخالد ، والديانة العقلية ، ومسائل الجوهر والعرض ، والتولد... الخ .

لكن هذا لا يعني ارتقاء المعتزلة في احضان الفلاسفة بلا تمييز ولا حذر . فقد كانت لهم شخصيتهم الاسلامية المميزة ، والمدافعة عن الدين ، المتسلحة بأقوى الاسلحة وامتنها ، والمناقضة في كثير من الاحايين لآراء ارسطو وسواه من فلاسفة اليونان كما يظهر عند النظام .

ثانياً : النصرانية :

من المشكلات التي عرضت للاسلام كما عرضت للنصرانية من قبل ، مشكلة التشبيه والتنزيه ، والجبر والاختيار ، والرجعة ، وربما اضفنا مقارنة (الكلمة)

(١) خطط المقرئ . ج ٤ ص ١٨٤

(٢) نيرج - مقدمة (الانتصار) ص ٤٨

(٣) احمدامين - فجر الاسلام ص ٢٩٩

بمشكلة خلق القرآن . الى غير ذلك من المشاكل المشتركة بين الديانات .
وقد يحلو لبعض المستشرقين المسيحيين ان يردوا - في تعسف احياناً - نشوء
هذه المشكلات في الاسلام الى تأثيرات نصرانية محضة . اذ يقول دي بور^(١) :
غير أننا لا نخطيء الصواب اذا قلنا ان اختلاط المسلمين بالنصارى وتلقيهم العلم
عنهم في المدارس كان له عظيم الاثر ونحن نجد بين مذاهب المتكلمين
الاول في الاسلام وبين العقائد النصرانية شهاً قوياً لا يستطيع معه احد ان
ينكر ان بينهما اتصالاً مباشراً . »

ويقول في موضع اخر بالنسبة للمعتزلة : « لكن الديانة التي كانت اثرها
في الاعتزال اكثر من اثر غيرها هي المسيحية^(٢) » .

ويقرر ماكس هورتن في تحيز ظاهر واضح ان علم العقيدة المسيحية او
علم الكلام المسيحي في الشرق يؤكد قبل كل شيء الاختيار الانساني ،
ومسؤولية الانسان الكاملة في تصرفاته .. ولما كانت أدلة هذا الرأي مقنعة
للأحرار المسلمين (رجال الاعتزال) رأوا من انفسهم لا محالة اتباعه^(٣) .

هذه هي العلاقة العامة بين بعض الآراء النصرانية وعلم الكلام وبعض
مباحثه ، اما العلاقة الخاصة بالمعتزلة ، فإن هناك شخصيات واتجاهات في
النصرانية تحددها . والمؤرخون الاسلاميون يميلون - كما ذكرنا - إلى (اتهام)
المعتزلة بالاخذ عن النصارى ، ويؤيدهم المستشرقون تأييداً غير خالص لوجه
الله والعلم .

ويقارن الكثيرون بين المعتزلة والمذهب النسطوري ، الذي نشأ في المشرق ،

(١) تاريخ الفلسفة في الاسلام . ص ٩٤

(٢) نفس المصدر ص ٢٤

(٣) فلسفة الاسلام ص ٢٠١ ط ميونيخ سنة ١٩٢٣ م . (نقلاً عن الجانب الالهي من
التفكير الاسلامي) . وكثير من المستشرقين يحدون - بكل الوسائل - ارجاع الفضل
في اي تفكير اسلامي الى المسيحية نظراً لاعتقادهم لفكر الاسلامي بقيمته الكبرى .

لما فيها من تحرر ودعوة لسيطرة العقل وتحكيمه .
كما انهم يشيرون الى تأثير شخصيات مسيحية من امثال يحيى الدمشقي
وتيودور أبي قره .

جاء في (الملل والنحل) أن : « اضافة نسطور الى النصارى كاضافة
المعتزلة الى هذه الشريعة ^(١) ، قال : ان الله واحد ذو اقانيم ثلاثة ، الوجود
والعلم والحياة ، وهذه الاقانيم ليست زائدة على الذات ولا هي هو . واشبه
المذاهب بمذهب نسطور في الاقانيم أحوال أبي هاشم من المعتزلة ، فانه يثبت
خواص مختلفة لشيء واحد ^(٢) .

وكان ليحيى الدمشقي-مستشار معاوية ويزيد- اتصال وثيق بالمتكلمين ^(٣)
حتى ألف كتاباً للرد على حجج شيوخم . وكان يقول في محاوراته : اذا قال
لك العربي كذا وكذا .. اجبه بكذا .

كما ان اتصالات تلميذه تيودور ابي قره بهم معروفة مشهورة . جاء في
(نفح الطيب) انه حدث مناظرة بين العتابي وابي قره في المسيح عليه
السلام .

وجاء في (الاغانى) ان اعشى بكر اخذ القول في القدر عن العباديين
نصارى الحيرة ، لقنوه اياه حين كان يأتهم ليشتري الخمر .

وذكر المقرئ في (خططه) ان اول من تكلم في القدر هو معبد الجهني
المتوفي سنة ٨٠ هـ . اخذه عن نصراني اسمه ابو يونس سنسويه (أو سوسن)
الاسواري .

(١) الملل . ج ١ ص ٥٣٥

(٢) نفس المصدر ص ٥٣٦

(٣) أعنى المهتمين بالجدل الديني . اذ لم يكن « المتكلمون » - نسبة الى « علم الكلام »
قد تميزوا بعد .

وروى ابن قتيبة ان غيلان الدمشقي اكبر دعية سحر - وقد خذ عنه
واصل - كان قبضياً واسلم ويسميه (غيلان القبضي) .

والحق ان الشبه بين ما عاجله المعتزلة وعاجله يحيى الدمشقي ليس وليد
الصدفة ، في مسائل القدر والارادة وحرية الانسان .

كان الدمشقي يقول بفعلين : جبري ، ليس للإنسان سلطان فيه وهو من
الله . واختياري ، يستحق الانسان عليه المدح والذم وهو باختيار . وكان
يقول ان الله لم يرد الحشر ولا يرضاه .

ويرى ان الإنسان يجب ان يتمتع بحرية الإرادة لأنه حيوان عاقل مزود
بالعقل الذي يميز به بين الاشياء وبالقدرة على العمل ... يضاف الى هذا ان
افعال الانسان تستحق المدح والذم ، ولا يمكن ان تكون كذلك الا اذا كان
الانسان حراً في اختيارها . ان حرية الارادة اعظم ما وهب الله عباده ،
فاذا انكرناها عليهم كان ذلك منتهى السخف (١) .

وهذا هو رأي المعتزلة في تبرير التكليف والعقاب والثواب بالضبط ،
يتفقون فيه مع يحيى ، او يتفق فيه معهم ، فالمسألة لا تخلو من تأثر وتأثير
على اية حال .

لكن .. هل هو تأثير كامل مطلق ؟ ..

كلا بلا ريب . فان الأمر لا يعدو ان تكون هذه الديانات - ومنها
المسيحية - كانت تقترح على المعتزلة موضع النزاع فقط . اما نشأة هذه
المشكلات الاولى فاسلامية بنحمة - كما يرى احمد امين (٢) . اني ان التأثير كان
في الطريقة والمنهج ، أما صلب الموضوع فيطراً لكل جماعة انسانية متدينة
(أعني ذات دين) كما يرى الدكتور محمد البهي (٣) . تعالجه بعد ذلك في

(١) زهدي جار الله في كتابه (المعتزلة) ص ٢٩

(٢) ضحى الاسلام - ج ١ ص ٤٦

(٣) الجانب الالهي من التفكير الاسلامي .

نطاقها الخاص ومن زاويتها الخاصة ، وان اتفقت مع غيرها في الرأي كانت الاتفاق غير مستغرب .. اذ العقل البشري واحد كما يرى المعتزلة انفسهم .

ثالثاً : اليهودية :

ان صلات اليهود بالمسلمين ضاربة بجذورها من قديم .. ولقد لاقى الرسول الكريم منهم عنثاً كبيراً وعناءً اكبر ، لما واجهوه به من جحود ونكران ومحاربة . وكانوا - وهم جيرانه في المدينة - يجادلونه ويحاورونه وينافقونه أيضاً .

وكانت آيات كثيرة من القرآن الكريم ترد عليهم ، أو تبين انحرافهم ، أو تسرد تاريخهم . وكان طبيعياً ان يحتك المسلمون بهم ، عن طريق الجدل والخصام ، وان تتم صلات .

يقول الدكتور علي سامي النشار : « قابلت اليهودية الاسلام اول نشأته على حدود يثرب واشتبكت معه اشتباكات عقلية عنيفة . جادل الوحي اليهود في المدينة وناقشهم مناقشة حادة . وعندما فر اليهود الى الشام ، واستولى المسلمون عليه كما استولوا على اليمن ، بدأت منذ ذلك الحين مجادلات عنيفة بين علماء الديانتين (١) .

ونحن لا ننكر اطلاقاً ان اليهود ساعدوا على قيام علم الكلام بما ادخلوه من عقائد مختلفة واحاديث موضوعة دعت شيوخ المعتزلة الى مناقشة هذه العقائد وانكار هذه الاحاديث (٢) .

فاليهود اذن ساهموا في نشأة علم الكلام باضطرارهم شيوخ المسلمين - وفي مقدمتهم المعتزلة - الى معارضتهم وجدالهم ومناقشتهم والرد عليهم . وبالنسبة للمعتزلة ايضاً - وكما يورد زهدي جار الله - كان لليهود بلا

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام - ج ١ ص ٤٠ ط ثانية

(٢) نفس المصدر ص ٤٨

شك بعض الاثر في ظهور المعتزلة ، ويظن انهم هم الذين نشروا مقالة خلق القرآن ، فعبيد بن الاعصم - عدو رسول الله ﷺ عند ابن الاثير قال بخلق التوراة ، وابن اخته طالوت اول من صنف في خلق القرآن . وعند الخطيب البغدادي ان والد بشر المريسي - المعتزلي - كان يهودياً . وعند ابن قتيبة ان اول من قال بخلق القرآن هو المغيرة بن سعيد العجلي ، وهو من اتباع عبدالله بن سبأ اليهودي ، الذي لعب دوراً كبيراً جداً في انحرافات الشيعة ونشأة الغلاة منهم ، مؤلهة علي بن ابي طالب .

والحقيقة ان نفس المشكلات التي عاجلها المعتزلة - وعلماء الكلام بصفة عامة كل من وجهة نظره - كانت معروفة لدى علماء اليهودية . مشكلات التشبيه والتنزيه ، والجبر والاختيار ، وحتى الرؤية والرجعة وما ماثلها . بل كان التشبيه فيهم طباع - كما يقول الشهرستان .

بل يذهب البعض الى ان التسمية نفسها (المعتزلة) ترجمة حرفية لاسم إحدى طوائف اليهود المتحررة وهي طائفة الفريسيين او (الفروشم) PHARISEES التي تعني بالانجليزية SEPARATED المنفصلين او المعتزلة . ولعل اليهود الذين اسلموا سموا المعتزلة بهذا الاسم لما وجدوا بين الطائفتين من تقارب في الافكار والآراء .

ويقارن الشهرستاني في معرض حديثه عن القدر عند اليهود فيقول : « واما القول في القدر فهم مختلفون فيه حسب اختلاف الفريقين في الاسلام . فالربانيون منهم كالمعتزلة فينا والقراء كالمجبرة » ^(١)

لكن ..

هل من الضروري القول بأن المعتزلة - وغيرهم من مفكري الاسلام - أخذوا آراءهم عن سواهم من الفلاسفة والنصارى واليهود ؟ ..

(١) الملل والنحل - ص ١٣٢ ج ١

طبعاً هذا غير معقول ، فان المسألة لا تعدو نطاق التأثير المحدود في سبل ومنهج وميدان المعالجة . أما صلب الموضوع ، ونتائجه ، فإسلامية بحتة ؛ بدليل وقوف المعتزلة في وجه الملاحدة والنصارى واليهود والرد عليهم بكل قوة وعنف وحرارة ، مما حفظ للإسلام هيئته وصلابته .

والاتفاق - في بعض الجوانب - بين النساطرة والفريسيين من جهة وبين المعتزلة من جهة أخرى ، لا يعني بالضرورة تتلمذهم لهم ، بقدر ما يعني ان ظهور هذه الطائفة (الرجال الاحرار او العقلين) ضرورة دينية واجتماعية وتاريخية مرحلية في كل دين وعقيدة .

ومسائل القدر ومحاولة تحقيق حرية الانسان، والبحث في الحرية الانسانية ، ينشأ بحسب ضرورة فلسفية للعقل الانساني - كما يرى مكدونالد (١) .

ويرى د. أبو ريذة ان أحداً لا يستطيع ان ينكر أن الدولة الاسلامية قد شملت أمماً بأكملها بما لها من علوم أو فلسفة أو دين ، وكان الفكر الاسلامي وليد الاتفاق أو التعارض بين الاسلام وما عداه . واذن فقد تأثرت الثقافة العربية بما أحاط بها أو وصل الى أهلها من الثقافات الاجنبية ، وهذا امر طبيعي في كل ثقافة . (٢)

(١) هامش (تاريخ الفلسفة في الاسلام) ص ٩٤

(٢) ابراهيم بن سيار النظام ؛ وآراؤه الكلامية والفلسفية . ص ٧٨

غَايَةُ الْمُعْتَزِّلَةِ مِنْ لَاتَّجَاهِ الْعَقْلِي
فِي عِلْمِ الْكَلَامِ

غاية المعتزلة من الاتجاه العقلي في علم الكلام

الدفاع عن الاسلام - حسن بلائهم في هذا السبيل
ضد : اليهود والنصارى والرافضة والمشبهة
والمجبرة والصابئة ... إلخ .

بعد أن بلغ رسول الله ﷺ دعوته ، ثم لحق بالرفيق الأعلى . وبعد أن فرغ المسلمون أو كادوا من فتوحهم وغزواتهم ، كان طبيعياً أن تتدخل عوامل جديدة في توجيه الافكار الدينية ، وربما تحريفها . وكان للبلاد المفتوحة (كفارس وبلاد كثيرة انتزعت من سيطرة الروم) اثر واضح في نشأة فرق متعددة تدعو دعوات منحرفة خارجة عن الاسلام ، وان كانت تتستر بستاره وتتخفى في ردائه . منها ما قام لغرض سياسي ، كفلاة الشيعة والرافضة ، والمشبهة والقرامطة والباطنية ، ومنها ما هدف إلى افساد الاسلام وتفسيره كالفرق المنبثقة عن اليهودية والثنوية والمناوية والسمنية والصابئة وغيرها .. وكلها تهاجم الاسلام ومعاقله بعنف وضراوة ، وتحاول التشكيك فيه وفي قيمته كدين متكامل ، حتى سادت موجة من الزندقة والاحاد والفسق والانحلال الخلقي نتيجة للبعد عن منبع الدين الصافي التقى .

وكان من الواجب ، والضروري ، أن تنهض طائفة بعبء الدفاع عن الاسلام ، ورد كيد الكائدين . ووجد في المعتزلة خير من قام بهذا الدور (التطهيري) المجيد ، ضد جميع الفئات تقريباً .

وماذا يكون السلاح في هذه المعركة الحادة الضارية ؟ ..

أهو القرآن والسنة والحديث وحدها ؟ ..

إنها لا تكفي في مجال الاقناع والجدل .. لا لضعف فيها .. وإنما بالنسبة للمجادل الذي لا يؤمن بهذا القرآن وهذه السنة وهذا الحديث ، ولا يسلم بقضاياها ..

فليكن السلاح إذن العقل البشري وحده .. العقل الذي ميز به الانسان عن الحيوان .. العقل الذي لا جدال بعد حجته القاطعة .

وهكذا كان الاتجاه العقلي سائداً علماء المعتزلة . بحكم طبيعة النقاش ، وبحكم تكونهم الثقافي . وبحكم إيمانهم المتحرر بالعقل وقيمه .

وساروا في هذا التيار ، حتى وجدوا انفسهم حملة لوائه والمعروفين به ، وحماة دون منازع .

إن علم الكلام كما يعرفه ابن خلدون اجمالاً ليس سوى (علم يتضمن الحجاج عن القواعد الأيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة^(١) .

لكن المعتزلة والحق يقال - تمادوا في هذا الاتجاه حتى قلبوا التعريف فجعلوا السنة والعقائد في خدمة العقل .. لا العكس .. وكان هذا لفرط اعتزازهم به واعزازهم له من جهة ولطبيعة المهمة من جهة أخرى . وحدث هذا بتطور الأمر عندهم ؛ فقد كانوا في البداية وهم من خواص اهل العلم والنظر ، واجهوا هذا الأمر الخطير - التشبيه والتجسيم لدى غلاة الشيعة ومجسمة خراسان واليهود - يحطم عقائد المسلمين ، فلجأوا إلى القرآن وإلى السنة الصحيحة يتأملونها ثم يضعون فكرتهم عن الله^(٢) .

(١) المقدمة ص ٥٨

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ص ٣٢٧

الدفاع عن الاسلام إذن ، ضد اعدائه من ابناء الديانات الاخرى ، وضد متبعيه المنحرفين ، هو غرض المعتزلة وهدفهم ، وما عملوا لغير هذا قط . وكانوا أول من امتشق حسام الكلام ، وسيف العقل . ينافحون به عن الدين القويم . فإنّ ثمّ ما يبرر القول مثلاً بان دفاع النظام كان الى حد ما من وجهة نظر فلسفية عقلية ، وان كان الباعث الاكبر عليه الدين^(١) .

يقول نيهرج في مقدمة (الانتصار) بعد سرد من عنى المعتزلة بالرد عليهم : ولم يسبقهم في الاسلام أحد الى الرد بهذا المقدار^(٢) . «

أما الخياط - المعتزلي الكبير - فانه ، في مجال رده على ابن الروندي ، يتوعده ، ويبين فضل المعتزلة في الدفاع عن الاسلام فيقول : « وويل صاحب الكتاب .. من للذب عن التوحيد لولا ابراهيم (النظام) واشباهه من علماء المسلمين الذين شأنهم حيطة التوحيد ونصرته والذب عنه عند طعن الملحدين فيه ... لأنهم (المعتزلة) المعنيون بالتوحيد والذب عنه من بين العالمين (ص ١٣) ... وهل على الارض أحد رد على أهل الدهر الزاعمين بأن الجسم لم يزل متحركاً وحركاته محدثة سوى المعتزلة ؟ (ص ١٧) ... ثم أعلمك ان المعتزلة قد غاظت هذا الماكن (ابن الروندي) بنصبها للملحدين وإفسادها لمذاهبهم ووضعها الكتب عليهم (ص ٢٣) : «

هذه لمحة خاطفة ونظرة عجلية إلى موقف الدفاع العقلي الذي اتخذته المعتزلة من الاسلام ، وهو موقف لا ينكره عليهم أحد من المنصفين ، وان كان بعض خصومهم من السلفيين قد حاولوا تشويه الصبغة الرائعة لهذا الموقف .

(١) ابراهيم بن سيار النظام - ص ٦٨ ، انظر مثلاً رده الفلسفي على الدهرية لاثبات بداية العالم وتناهيه - دليل القطع في الكواكب . ورده على المنانية والديصانية ص - ٥٨

(٢) نشأة الفكر الفلسفي ... ص ٥٤ - ٥٧

وكلنا يعرف كيف كان المعتزلة حائزي قصب السبق في ميدان المناقشة
عن الاسلام ، حتى كان الرشيد - وهو الذي اضطهدهم وسجنهم - يلجأ اليهم
حين اليأس ليزودوا عن حمى الاسلام .

هم وقفوا ضد كل الطوائف والفرق ، وقطعوها ، وتغلبوا عليها ، وكان
رجالهم من أمثال النظام وابن الهذيل مضرب المثل في قوة الحجة ، ومتانة
البرهان ، وصلابة الدليل .

وليس هذا هو المجال الذي ينبغي علينا فيه الاستطراد في الموضوع .
فلنحاول الآن أن نلقي ضوءاً على بعض المشكلات التي عالجها المعتزلة ، ونخص
منها المشكلات العقلية المتصلة بالدين ، او بتعبير آخر المشكلات الدينية
ذات الصبغة العقلية .

مشكلات عقلية - دينية

مشكلات عقلية - دينية

الأصول الخمسة - الجبر والاختيار - العقل والسمع
الحسن والقبح - الصلاح والأصلح - التكليف واللفظ
إرجاع مقالات المعتزلة إلى أصولهم الخمسة

لعله من الأنسب قبل بداية الحديث عن المشكلات (العقلية) التي عاجلها المعتزلة وتعرضوا لها ، ان نشير في إيجاز الى الأصول الخمسة او المبادئ التي ارتكز عليها مذهبهم ، والتي هي - كما يقول الخياط - ليس يستحق اسم الاعتزال أحد حتى يجمع القول بها .

وذلك لأن ارتباط مقالاتهم - فيما بعد - يعود إلى هذه الأصول مجتمعة أو متفرقة ، وخاصة - فيما يتعلق بالنزعة العقلية - أصلاً : العدل ، والوعد والوعيد .

ونحن نحب أولاً أن نلاحظ أن الشهرستاني يثبتها أربعة أصول بدل خمسة ، وهي :

أصل التوحيد (ويندرج تحته مشكلات الصفات : كالكلام والارادة والسمع والبصر والرؤية والتشبيه) وأصل العدل (ويشمل : افعال العباد ، الصلاح والأصلح ، واللفظ) ثم الوعد والوعيد (ويتضمن : العوض والخلود في النار بالكبيرة) وأخيراً السمع والعقل ، ويعني بأصول المعرفة ، الحسن والقبح ، والتكليف) .

لكن المشهور عن أصول المعتزلة انها خمسة ، هي : (١)

١ - القول بالتوحيد ، وفيه ان الله واحد لا شريك له من اي جهة كان .

٢ - القول بالعدل ، وفيه ان الله لا يحب الشر والفساد .

٣ - القول بالوعد والوعيد ، وفيه ان الله صادق في وعده ووعيده .

٤ - القول بالمنزلة بين المنزلتين وفيه ان صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا

كافر ولكنه فاسق .

٥ - الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفيه تكليف المؤمنين بالجهاد

وإقامة حكم الله .

ويلاحظ المرء أن اصل المنزلة بين المنزلتين ذو اهمية قصوى في ظهور المعتزلة ، حتى ان الكثيرين يذهبون الى القول بأنهم ما 'سمّوا' معتزلة الا لقولهم باعتزال مرتكب الكبيرة المؤمنين والكافرين ، في منزلة وسط . كما ان اصل التوحيد لعب دوراً كبيراً في اتجاهات المعتزلة من حيث رغبتهم المطلقة في تنزيه الباري جل وعلا ، مما ادى بهم إلى القول بخلق القرآن ونفي الصفات وغيرها . وإن كنا نلاحظ في نفس الوقت ان مبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر يكاد لا ينال حظه من النقاش والاهتمام وربما يرجع هذا إلى انه مبدأ عام يشترك فيه مع المعتزلة المسلمون جميعاً . (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) (٢) (كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) (٣) .

نود ان نذكر أولاً حكمة عن طبيعة المشكلات التي عولجت من قبل المعتزلة وغيرهم من علماء الكلام ، مستخلصين منها ما يدور حول بحثنا من

(١) مقدمة كتاب (الانتصار) ص ٥٠ - ٥١ .

(٢) سورة : آل عمران آية : ١٠٤ .

(٣) سورة : آل عمران آية : ١١٠ .

مشكلات عقلية ، أو يغلب عليها الطابع العقلي ، وهي التي تهمننا في هذا الموضوع الآن .

فلقد اصطدم المعتزلة بخصومهم من مختلف الاتجاهات ، في جميع المجالات الكلامية تقريباً ، ولا زالت آثارهم التي اثبتتها هؤلاء الخصوم شاهدة على هذا الامر حتى الآن . هم تكلموا في الاصول والفروع ، وناقشوا جميع الآراء والمذاهب التي ظهرت في عصرهم ، دينية ، وسياسية ، واجتماعية ، وفلسفية . ملبسين جداً لهم ثوب العقل ، ومتسلحين به ومتخذين له مرشداً لهم في طريقهم الشاق الطويل .

وقد ظهرت منهم منذ اول أمرهم نزعة الى الاعتماد على العقل والى اقامة سلطان له ، الى جانب النصوص المنزلة . فحكموه في آرائهم بالاجمال في معرفة الله وصفاته وافعاله ، وفي الحسن والقبح في الافعال وغير ذلك ، وظهر منهم الاستقلال في الرأي في كثير من المسائل ، ولذلك يسميهم الباحثون الاوربيون « اصحاب المذهب العقلي Rationalists » او « المفكرين الاحرار » ... وتتردد تسميتهم بالعقليين في كتابات كثير من الباحثين الاوربيين ^(١) .

ولنذكر كما بينا مراراً ان الموضوعات التي تعرض لها المعتزلة هي بصفة عامة (موضوعات انسانية) شاملة بمعنى انها تعرض لكل عقل سليم . لكن طريقة المعالجة والتفصيلات هي التي تختلف بطبيعة الحال وتباين .

الجبر والاختيار :

من أوائل هذه المشكلات (الازلية) التي خاض فيها شيوخ المعتزلة وكان لهم فيها موقف واضح محدد ، هي مشكلة الجبر والاختيار .

(١) د. أبو ريدة (ابراهيم بن سيار النظام ص ٦٧ .

هل الانسان مجبور على فعل ما يفعل ؟ ام هو مخير في فعله له حرية التصرف كيف يشاء ؟ .. أي هل نحن نطلق للإنسان حرية في العمل والفعل ، ام هو مقيد بقدر مكتوب لا يجيد عنه ولا ينبو قيد شعرة ؟

هذه مشكلة دوخت من بحثوها ، وبرزت في كل الديانات والثقافات ونالت حظاً من النقاش والجدل ، وكان الفوز سجلاً بين المذهبين . في اليهودية والنصرانية مثلاً ظهر الاتجاهان ، وتبعهما اتباع وانقسمت الديانتان فرقتين رئيسيتين : أهل الجبر ، وأهل القدر . أي الذين يجعلون للإنسان قدرة واستطاعة على التصرف الحر غير المقيد .

وكذلك حدث في الاسلام ؛ برزت الطائفتان وتخاصمتا وتصارعتا . وكان يمثل القائلين بالجبر خير تمثيل الجبرية الخالصة من اتباع الجهم بن صفوان ، وأهل السنة من السلفيين نوعاً ما ، ويصور المنادين بحرية الانسان المعتزلة ومن لف لفهم .

ولقد سمي المعتزلة بالقدرية ، يريد خصومهم النيل منهم والخط من قيمتهم ، وذلك لما روي من أحاديث شريفة تدم (القدرية) ذمماً شديداً ، من مثل (القدرية مجوس هذه الامة) ، (لعنت القدرية على لسان سبعين نبياً) ، (القدرية والمرجئة لعنتا على لسان سبعين نبياً) ..

وكان المعتزلة يتصلون من هذا الاسم محاولين الصاقه بخصومهم لأنهم - في رأيهم - أولى به منهم ، ما داموا يقولون بالقدر خيره وشره من الله . لكن التسمية لم تلبث أن لبستهم وعرفوا بها على مر العصور .

وكان لموقفهم التحرري من احترام ارادة الانسان ، وتقديس عقله ، ما دفعهم الى ان يتفقوا على ان العبد قادر خالق لأفعاله خيرا وشرها ، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة . (١)

(١) الملل والنحل - للشهرستاني ج ١ ص ٦٢

أما المشكلة نفسها فقد كانت عرفت منذ بداية المعتزلة وأثيرت، وإن كان الجدل فيها لم يتخذ مظهره الفلسفي الدقيق إلا بعد تطور فكرهم ونضوج آرائهم بعد ذلك. وكانوا في بداية الأمر وينظرون إليه ببساطة ووضوح، ويرون في حرية الإنسان تبريراً للمسؤولية والمحاسبة. وكان واصل بن عطاء، زعيمهم الكبير، مثلاً يقول: «إنه لا يجوز أن يريد الله من العباد خلاف ما يأمر، ويحتم عليهم شيئاً ثم يجازيهم عليه». فالعبد هو الفاعل للخير والشر والإيمان والكفر والطاعة والمعصية، وهو المجازي على فعله. والرب تعالى أقدره على ذلك كله (١).

القضية إذن أن المعتزلة جعلوا الحرية الإنسانية شرطاً لتحمل المسؤولية وتبرير التكليف والحساب. وبدون هذه الحرية يصبح ما ذكرنا شيئاً لا معنى له؛ إذ كيف يجبر الله عباده على فعل قدره هو عليهم ثم يحاسبهم لأنهم فعلوه؟!

وهذا تساؤل فيه نصيب كبير من الصحة والحق. وللمعتزلة مباحث لطيفة في معنى الفعل ومدى نصيب الإنسان منه. أعني ما حدود الفعل الإنساني؟.. هل هو مقيد أم مطلق؟.. واختلّفوا فيه، كما اختلفوا في الفعل المتولد وما نتج عن القول بالتولد، حتى كان يصطدم شيوخهم ببعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم بعضاً في مثل هذه الموضوعات. (٢).

فمعمّر بن عباد السلمي مثلاً قال: ليس للإنسان فعل سوى الإرادة

(١) المصدر السابق - ص ٦٦.

(٢) من مظاهر الحرية الفردية لدى المعتزلة اهتمامهم بالنقد الذاتي، وعدم تقيدهم بتقليد شيوخهم، ونزوعهم إلى تحقيق الآراء وتمحيصها. وهذا يتضح للمتتبع لآراء علمائهم ومذاهبهم.

مباشرة كانت او توليداً^(١) . بينما يوافقه ثمامة بن أشرس النميري في القول بأن لا فعل للانسان الا الارادة ، لكنه يضيف ان ما عداها فهو حدث لا محدث له^(٢) . ويرى الجاحظ أيضاً انه ليس للعبد سوى الارادة وتحصل أفعاله منه طباعاً^(٣) . هذا بينما اتفق الجبائي وابنه ابو هاشم على القول باثبات الفعل للعبد خلقاً وابداعاً^(٤) .

لقد كانت القضية من البساطة بحيث انها لم تكن تحتاج لطويل جدال ؛ الانسان مكلف لأن له عقلاً ، فهو حر في تصرفه فيحاسب عليه - وهو يدرك هذا - فيعاقب او يثاب .

حقى اذا ما حاول أهل السنة اتهام المعتزلة بأنهم يجعلون الله شريكاً بقولهم ان الانسان فاعل على الحقيقة ، رفع هؤلاء التهمة وحاولوا قلبها على خصومهم بقولهم : ان فعل العبد عندهم متميز عن فعل الله جل وعز باوصافه وأحكامه . والشركة - هكذا يقولون - تثبت في الجبر الذي لا يحصل فيه تمييز !! (فكأنما هم يرمون الى اثبات أن فعل العبد مستقل عن فعل الله وإذن فلا شركة ، لكن الشركة تأتي من القول بأن أفعال العبد رهينة بأفعال الله) .

لكن خصوم المعتزلة من الدقباطيين الجزميين كانوا يرون في هذا القول خروجاً عن الدين ونبوّاً عن الصراط القويم ، فيقول أبو مظفر الاسفرايني مستنكراً : ان من افطع ما صنعوه نسبتهم التقدير الى انفسهم لا الى خالقهم^(٥) . ويقول البغدادي - وهو من ألد خصومهم - في (الفرق بين الفرق) .

(١) الملل والنحل ص ٩٩

(٢) الملل ص ١٠٦

(٣) الملل ص ١١٢

(٤) الملل ص ١٢٠

(٥) للتبصير في الدين ص ٨٤

« ومنها قولهم جميعاً بأن الله تعالى غير خالق لا كساب الناس ولا شيء من أعمال الحيوانات ، وقد زعموا أن الناس هم الذين يقدرّون على اكسابهم ، وان ليس لله عز وجل في اكسابهم ولا في اعمال سائر الحيوانات صنع ولا تقدير . ولاجل هذا القول سماهم المسلمون قدرية^(١) » .

والحق ان في هذا الكلام تحريفاً وتجنّياً على المعتزلة واراؤهم . فالمعتزلة لم يقولوا الا بأن الله خلق الانسان واعطاه حرية التصرف والفعل . تماماً كما يسمح الملك لعبده او خادمه بالتصرف في قصره ، فإن احسن أثابه وان أساء عاقبه . كذلك هم يفرقون بين الفعل (الانساني) الذي يستحق المدح والذم ، والفعل (الإلهي) الذي لا دخل للانسان فيه ، كالولادة والموت وغيرهما . ولم يكن - في بعض الأحيان - الفعل الانساني عندهم مطلقاً ، فقيده النظام بالخاطر ، وهو الداعي او المصلحة او المانع^(٢) .

ولا نستطيع - من ناحية اخرى - انكار أن بعضهم قد تمادى في القول بأن للانسان قدرة على الخلق والفعل ، حتى خلق الأرايح والطعوم ، عن طريق القول بالافعال المتولدة . لكن مرجع هذا كله هو الايمان بالعقل البشري ، والتأكيد على قيمته والمغالاة في احترامه وتقديسه .

وعلى النقيض من المعتزلة وقف اهل السنة يقولون : ان كل ما جرى على العبد من المعاصي فهو خلق من الله تعالى ، وهو عدل منه سبحانه ومعصية من العبد . وكل ما جرى من العبد من الطاعات فهو خلق من الله تعالى ، وهو من الله فضل . وهما من العبد طاعة ومعصية ومن الله فضل وعدل^(٣) .

(١) النرق بين الفرق ص ١١٤ - ١١٥

(٢) ابراهيم بن سيار النظام - آراؤه الكلامية الفلسفية . ص ١٧١ - ١٧٣

(٣) التبصير في الدين ، للاسفرائيني ص ٨٦

وبعد ان يورد ابو مظفر الاسفرايني الاحاديث والقصص عن الرسول ﷺ وعن علي وابن عباس (رض) التي تؤيد رأي اهل السنة في الايمان بالقدر خيره وشره من الله ، يشن هجوماً قوياً على المعتزلة الذين يسميهم (القدرية) ذاكرين انهم - رغم هذا - يعدون في فرق الاسلام عدا فرقتين منهم .

ولعل خير تلخيص لرأي اهل السنة هذه الابيات التي يوردها ابو مظفر الاسفرايني عن الامام الشافعي رضي الله عنه :

ما شئتَ كان وإن لم اشأ وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت ففي العلم يجري الفتي والمسن
على ذا مننت وهذا خذلت وهذا اعنت وذا لم تعن
فهذا سعيد ، وهذا شقي وهذا قبيح ، وهذا حسن

ويعلق ابو مظفر بأن قوله « ففي العلم يجري الفتي والمسن » رد على المعتزلة في جميع ما يوردونه من الشبه في التعديل والتجويز ^(١) .

الحسن والقبح :

لعلنا لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا أن أشهر ما عرف به المعتزلة وتنوّل عنهم ، ورد عليهم فيه ، قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين ، أي ان الشيء او الفعل يحمل صفة الحسن او القبح في ذاته ، ولا يكون موصوفاً بهما لعلّة خارجية ، كالامر او النهي .

هم يعتقدون ان الشر موصوف بذلك لأنّه شر في نفسه ، ولذا نهى الله في الديانات المنزلة ، والخير خير في نفسه ، ولذلك امر به الله . على العكس مما يقول به اهل السنة من ان الشرع هو الذي بيّن لنا الحسن من القبيح ، او الحلال من الحرام ، بأن امر بفعل الحسن ونهى عن فعل القبيح . ولو اراد ان

(١) نفس المصدر ص ٨٨

يجعل الحسن قبيحاً - او العكس - لفعل ، وكان هذا صواباً منه وعدلاً .

فالموقف إذن بين اهل الاعتزال واهل السنة موقف تضاد وصدام . ومن هنا كانت هذه الكتب التي صنفها اهل السنة والاشاعرة ينقضون هذا المبدأ ويعارضونه ، وتلك التي سطرها المعتزلة يدافعون عنه ويدللون على صحته .

ماذا يرى المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين ؟ .

ولماذا نادوا بهذا الرأي ؟ ..

انهم نادوا به لايمانهم المطلق بالعقل ، وبأنه هو الذي يؤدي الى معرفة الله والى معرفة المحبوب من الأعمال . ويعتقد الدكتور أبو ريذة أن من أكبر العوامل التي دعت المعتزلة الى هذا الرأي بالاضافة الى ايمانهم بسلطان العقل في المعارف والواجبات ، تفرقتهم بين علم السمع وعلم العقل ، وذلك بتأثير الثقافة الفلسفية بالاجمال (١) .

هم قالوا بالحسن والقبح العقليين لأنهم فصلوا بين علم السمع - الذي هو الكتب الالهية المنزلة على الرسل - وبين علم العقل - الذي لا يعتمد على شيء سوى نفسه . ولفرط ثقتهم في هذا العقل أوجبوا عليه معرفة الله سبحانه وتعالى حتى قبل نزول الوحي وبعث الرسل ، بل تهادى أبو الهذيل العلاف فقال ان على المكلف معرفة الله حتى قبل ورود الخاطر .

هم يوجبون معرفة الحسن والقبح بالعقل ، ويوجبون كذلك فعل الحسن واجتناب القبح ايضاً (٢) . كان أبو الهذيل مثلاً يقول في المكلف قبل ورود السمع انه يجب عليه ان يعرف الله بالدليل من غير خاطر ، وان قصر في المعرفة استوجب العقوبة ابدأ ، ويعلم ايضاً حسن الحسن وقبح القبيح ، فيجب عليه

(١) ابراهيم بن سيار النظام . ص ٨٨

(٢) الملل والنحل ص ٦٣

(٣) الملل والنحل ص ٦٦

الاقدام على الحسن كالصدق والعدل ، والاعراض عن القبيح كالكذب والجور^(٣) . وهذا لعمرى منتهى الثقة في العقل الانساني والاعتداد به ، والتمسك بسلطانه وقوته .

لكن النظام - تلميذ أبي الهذيل - رغم أنه يوافق استاذة في انه اذا كان المفكر قبل ورود السمع عاقلاً متمكناً من النظر ، يجب عليه تحصيل معرفة الباري تعالى بالنظر والاستدلال ، ويوافقه في القول بتحسين العقل وتقبيحه في جميع ما يتصرف فيه من افعاله ؛ الا انه يرى انه لا بد من خاطرين : احدهما يأمر بالاقدام والآخر بالكف ليصح الاختيار^(١) .

ويذكر الشهرستاني ان الجعفرين - جعفر بن بشر وجعفر بن حرب - يقولان ايضاً بالتحسين والتقبيح العقليين ، كذلك يفعل ثامة بن أشرس ، غير أنه زاد عليهم فقال : من الكفار من لا يعلم خالقه وهو معذور . كما اتفق الجبائي وابنه أبو هاشم على ان المعرفة وشكر المنعم ، ومعرفة الحسن والقبح واجبات عقلية^(٢) .

ان المعتزلة يتخذون من التحسين والتقبيح العقليين قانوناً عاماً يطبقونه حق على الله تعالى نفسه ، بعد ان أوجبوه على الانسان . فان النظام مثلاً يرى أن الله ليس يجتلب المنافع ويدفع المضار ولكن يفعله (العدل) لحسنه وشرفه^(٣) . وقد اشتهر عن النظام قوله بأن الله لا يقدر على فعل الظلم لان في هذا انتقاصاً منه تعالى .

بالاختصار أجمعت المعتزلة - إلا عباداً - على ان الله جعل الايمان حسناً والكفر قبيحاً ، بأن جعل التسمية للإيمان والحكم بأنه حسن ، والتسمية للكفر والحكم بأنه قبيح^(٤) .

(١) الملل والنحل ص ٨٥

(٢) الملل والنحل ص ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٢٠ ج ١

(٣) (الانتصار) للخطاط ص ٤٢

(٤) مقالات الاسلاميين للأشعري ص ٢٧٣ ج ١

يقول الشهرستاني مبيناً موقف المعتزلة من مسألة التحسين والتقبيح العقليين : فصار المعتزلة إلى أن العقل يستدل به على حسن الافعال وقبحها ، على معنى أنه يجب على الله الثواب والثناء على الفعل الحسن ، ويجب عليه الملام والعقاب على الفعل القبيح . والافعال على صفة نفسية من الحسن والقبح ، وإذا ورد الشرع بها كان مخبراً عنها لا مثبتاً لها ^(١) .

وجاء في المواقف « الإيجي » وعند المعتزلة أن تعلق المدح والثواب والذم والعقاب عقلي . قالوا : للفعل جهة محسنة أو مقبحة ، ثم إنها قد تدرك بالضرورة كحسن الصدق النافع وقبح الكذب الضار ، وقد تدرك بالنظر كحسن الصدق الضار وقبح الكذب النافع ^(٢) .

اما الفاضل عبد الجبار بن أحمد - أحد شيوخ المعتزلة المتأخرين - فإنه يقول عند الكلام في العدل : « إعلم أن الطريق الى معرفة احكام هذه الافعال من وجوب وقبح وغيرها هو كالطريق الى معرفة غير ذلك . ولا يخلو إما ان يكون ضرورياً أو مكتسباً . والأصل فيه أن أحكام هذه الأفعال لا بد من أن تكون معلومة على طريق الجملة ضرورة ، وهو الموضع الذي نقول ان العلم بأصول المقبيحات والواجبات والمحسنات ضروري ، وهو من جملة كمال العقل . ولو لم يكن ذلك معلوماً بالعقل لصار غير معلوم ابداً ^(٣) .

فكأنما هو يريد القول بأن العقل لا يكمل الا اذا عرف - من تلقاء نفسه - الحسن والقبح ، فإذا لم يعلمه بقي ذلك مجهولاً ابداً .

ثم يضيف : « اعلم ان القبيح ليس بقبيح الا لوقوعه على وجه ^(٤) اي ان الفعل يحمل صفة القبح - وكذلك الحسن - في نفسه وذاته ، وليس هو كذلك لأمر أو نهي جاء به او عنه .

(١) نهاية الاقدام للشهرستاني ط جيوم ص ٣٧١

(٢) المواقف ، ج ٢ ص ٣٩٣

(٣، ٤) المجموع من المحيط بالتكليف ، مخطوطة ص ٨٢ ج ١

خلاصة القول أن المعتزلة أعطوا العقل قيمته الكبرى في معرفة الله قبل ورود
السمع ، وسلطانة الكامل في معرفة الخير والشر والفساد والصالح ، وقدموه
على سواه - حتى على الشرع نفسه - فما موقف معارضيه في هذا الموضوع؟..

نحن نعلم أن اهل السنة والأشاعرة وقفوا منهم موقفاً متشدداً مستمسكاً
بالقرآن والسنة والحديث ، نابعاً من إيمانهم بالقدر خيره وشره من الله ،
معتمدين على أن الله تعالى لا يعذب من لم يكلفه عن طريق الرسل . معتمدين
على الآية الكريمة : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً)^(١) . فلننظر إلى
آرائهم ونعرضها في إيجاز . واننا لواجدون في كتاب (نهاية الاقدام)
للشهرستاني تلخيصاً طيباً لهذا الموقف .

يقول الشهرستاني : « فذهب اهل الحق (السنة) أن العقل لا يدل على
حسن الشيء وقبحه في حكم التكليف من الله شرعاً ، على معنى أن أفعال
العباد ليست على صفات نفسية حسناً وقبحاً ، بحيث لو أقدم عليها مقدم أو
أحجم عنها محجم استوجب على الله ثواباً أو عقاباً ، وقد يحسن الشيء
شرعاً ويقبح مثله المساوي له في جميع الصفات النفسية . فمعنى الحسن ما
ورد الشرع بالثناء على فاعله ، ومعنى القبيح ما ورد الشرع بذم فاعله^(٢) .

أما من حيث معرفة الله تعالى فإن الشهرستاني يبين موقف الأشعري^(٣)
فيقول انه فرق بين حصول معرفة الله تعالى وبين وجوبها فإن المعارف كلها
انما تحصل بالعقل ، لكنها تجب بالسمع .

ويضرب اهل السنة مثلاً لو قدرنا أن إنساناً قد خلق تام الفطرة كامل
العقل دفعة واحدة من غير أن يتخلق بأخلاق قوم ولا تأدب بآداب الأبوين

(١) سورة الاسراء : آية ١٥

(٢) نهاية الكلام في علم الكلام . ص ٣٧٠

(٣) يلاحظ أن الأشعري - رغم انقلابه على المعتزلة - يتخذ موقفاً وسطاً في اغلب الاحيان

ولا تزيا بزى الشرع ولا تعلم من معلم ، ثم عرض عليه امران ؛ احدهما أن الاثنين اكثر من الواحد ، والثاني ان الكذب قبيح بمعنى أنه يستحق من الله لوماً عليه ، لم يشك انه لا يتوقف في الاول ويتوقف في الثاني . ومن حكم بان الأمرين سيان بالنسبة الى عقله خرج عن قضايا العقول وعاند عناد الفضول^(١) .

ويضيف الشهرستاني معلقاً على موقف المعتزلة : قالوا وقد اخطأت المعتزلة حيث ردوا القبح والحسن الى الصفات الذاتية للأفعال ، وكان من حقهم تقرير ذلك في العلم والجهل ، إذ الأفعال تختلف بالاشخاص والأزمان وسائر الاضافات وليست هي على صفات نفسية لازمة لها لا تفارقها البتة .^(٢)

فأهل السنة يرون إذن أن تقرير الحسن والقبح خاضع للظروف والبيئة والزمان ، من بعد الشرع . ولا يسلمون بأن كل فعل يحمل قيمته في ذاته - كما يرى المعتزلة .

وأهل السنة يستدلون أيضاً على ان الشرع هو المحسن والمقبح بنسخ الشرائع حتى يتبدل حظر باباحة وحلال بحرام .

من ناحية اخرى ، ذهب بعض شيوخ المعتزلة الى القول ان كثيراً من الاشياء تجب على العبد من غير أن يكون من الله تعالى فيه أمر ، مثل النظر والاستدلال وشكر المنعم وترك الكفر والكفران . وإن العبد اذا أتى بهذه الأشياء على قضية عقله دون امر ربه سبحانه ، وجب على الله تعالى ان يثيبه^(٣)

فالمعتزلة اذن يوجبون على الله أن يثيب العبد العارف الصالح لأن هذا

(١) نفس المصدر السابق ص ٣٧٢

(٢) نفس المصدر ص ٣٧٦ .

(٣) التبصير في الدين ص ٦٣ .

من عدله تعالى . بينما ينكر اهل السنة وأتباعهم هذا (القانون) ويرون ان الله جل وعلا حر في ان يعاقب أو يثبت - دون ابداء الاسباب .

المعتزلة - على الحقيقة - تبادوا في بعض الاحيان حتى جعلوا من الانسان ندًا لله تعالى في الواجبات والحقوق ، وساووا بين العبد وربّه ، حتى لم يعد هناك مجال لفضل أو تفضل ، بل هو حق يؤخذ وواجب يؤدي ؟ !!

يقول (الايجي) في (المواقف) :

« إن القبيح - لدى اهل السنة وهو منهم - ما نهى عنه شرعاً ، والحسن بخلافه . ولا حكم للعقل في حسن الاشياء وقبحها ، وليس ذلك عائداً الى امر حقيقي في الفعل يكشف عنه الشرع ، بل الشرع هو المثبت وهو المبين . ولو عكس القضية فحسن ما قبحه وقبح ما حسنه لم يكن ممتنعاً وانقلب الامر . وقالت المعتزلة بل الحاكم بهما العقل ، والفعل حسن او قبيح في نفسه والشرع كاشف ومبين ، وليس له ان يعكس القضية . » (١)

هذان هما موقف المعتزلة وأهل السنة ، يمنعنا من الاسترسال في سرد تفاصيل الخلاف وحجج كل فريق وبراهينه ضيق المجال ، والاستغناء بما أوردناه عن الشرح والتطوير .

فلننتقل إلى مشكلة أخرى - متصلة بما سبق وبما هو لاحق - وهي قضية :

السمع والعقل :

هذه القضية متصلة تمام الاتصال بفكرة التحسين والتقبيح العقليين ، ومتصلة أيضاً بالتكليف ، ومتصلة ثالثاً بالديانة العقلية التي سنفرد لها قسمًا خاصاً من هذا البحث باذن الله .

أما السمع فمعناه ما جاء عن طريق الرسل والكتب المنزلة من اوامر ونواه تحدد الاحكام وتبين الحلال من الحرام .

(١) شرح المواقف ص ٣٩٣ .

وأما العقل فهو ذلك الشيء . الذي أودعه الله تعالى في الانسان وميزه به ورفع عن سائر الحيوان والجماد ، وصار به مسئولاً ، مختاراً ، محاسباً على ما تقدم يداه .

فهل يستطيع الانسان بعقله هذا أن يستغني عن الرسل والانبياء ليعرف ما يرضى الله وما يغضبه ؟ .. وهل يكفي هذا العقل لارشاد الانسان في طريقه الى العمل للدنيا والآخرة ؟ ..

يقول المعتزلة بثقة مطلقة : نعم .. العقل وحده كافٍ للإنسان .
فاذا سألناهم : ما بال الرسل يبعثون ، والانبياء بين ظهرانينا من عند الله ؟ ..

قالوا : ان هذه الرسائل ليست سوى ألطاف من عند الله ليخفف بها عن عباده . فالتكاليف كلها ألطاف ، وبعثة الانبياء وشرع الشرائع وتمهيد الاحكام والتنبية على الطريق الأصبوب كلها ألطاف (١) . ولو آمن العبد بلا لطف - أي بلا رسالة - لكان ثوابه اكثر لكثرة مشقته (٢) .

المعتزلة يتفقون على أن اصول المعرفة - ومنها معرفة الله ومعرفة الخير والشر - وشكر المنعم واجبة قبل ورود السمع (٣) (أي الرحي) ... لكنهم يختلفون في التفاصيل .

فبينما نرى أبا الهذيل العلاف يوجب على المكلف المعرفة دون قيد او شرط ، نجد النظام يقول انه لا بد من وجود الخاطر الذي يبين له هذه المعرفة . هذا بينما يرى ثمامة بن اشرس أن المعارف كلها ضرورية وان لم يضطر (العبد) الى معرفة الله سبحانه وتعالى فليس هو مأموراً بها وانما خلق للعبادة والسخره كسائر الحيوان (٤) .

(١) الملل والنحل ص ١٢١

(٢) « « ص ١٢٦

(٣) « « ص ٦٣

(٤) « « ص ١٠٦

فالإنسان الذي لم يتوصل الى معرفة الله بعقله لا تثريب عليه في رأي ثامة، وان كان قد انزله الى مرتبة الحيوان الذي خلق للعبدة . والمرجع في قوله هذا الى ان بالعقل تحصل المعرفة ، فكأن من لا يستطيع ان يعرف لا عقل له، فهو والحيوان في مرتبة سواء ! ونفس هذا الرأي يورده الاسفرايني عن ثامة من ان المعارف لديه ضرورية ، وان من لم يعرف الله سبحانه ضرورة ليس عليه امر ولا نهى، وان الله خلقه للسخرة والاختبار ، لا للتكليف والاختيار (١)

يقول الامام ابو حامد الغزالي - مؤيداً موقف السلف واهل السنة: ندعي انه لو لم يرد الشرع لما كان يجب على العباد معرفة الله تعالى وشكر نعمته - خلافاً للمعتزلة حيث قالوا بأن العقل بمجردده موجب (٢) .

ولعل هذه النزعة المسيطرة على اتجاه المعتزلة في كل ما تعرضوا له .. هذه النزعة العقلية الحادة التي تكاد تتحول عندهم الى شيء مقدس والتي لاقوا في سبيلها كل عنت ، هي التي دفعت دي بور الى القول :

« الحق ان كثيراً من المعتزلة كانوا يعولون على العقل اكثر مما يعولون على القرآن (٣) »

والحق ايضاً انهم كانوا يقدمون العقل على النقل مما دفعهم الى تأويل الآيات القرآنية الكريمة التي لا تتفق مع اتجاهاتهم ، حسب آرائهم ومذاهبهم ، كما دفعهم هذا الموقف الى انكار العديد من الاحاديث النبوية التي تتعارض مع العقل وتتناهى . واصطدموا بالمحدثين اصطداماً عنيفاً منذ البداية ، واعتبروهم خطراً على الدين ، لأن بعضهم لا يحص احاديثه ولا ينقدها . وذهبوا الى تكذيب الصحابي عبد الله بن مسعود في الحديث القائل (ان الشقي من شقي في بطن

(١) التبصير في الدين ص ٧٤

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٨٩

(٣) تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ص ١٠٥ ط ٤

امه) كما لم يقبلوا الكثير من احاديث ابي هريرة الذي اسرف في ايرادها اسرافاً ملحوظاً . وكما يقول احمد امين :

«الحق ان فرقة المعتزلة كانت اجراً الفرق على تحليل اعمال الصحابة ونقدم وإصدار الحكم عليهم (١) . وما ذلك الا لان المعتزلة كانوا يحاولون ان ينفوا فكرة التقديس التي تحيط ببعض الاشخاص من الصحابة خصوصاً ، وتحكيم العقل لهم او عليهم (٢) .

لقد رأى المعتزلة ان العقل البشري قد منح من السلطة والسعة ما يمكنه من اقامة البرهان على ما يتعلق بالله . فلا حدود للعقل إلا براهينه ، ولا خطأ ولا زال متى صح البرهان . فلتستعمل البراهين في ادق الأمور واصعبها وأعقدها ، ففي استطاعة العقل الوصول الى الحق فيها ... وعلى العكس من ذلك الآخرون : رأوا ان العقل اضعف من ذلك ، وانه منح القدرة على أن يدرك البرهان على وجود الله والنبوة عامة ونبوة محمد خاصة ، ولم يمنح القدرة على معرفة كنه الله وصفاته ، فلنؤمن بما جاء به انبياءه... ولنقف عند ذلك (٣).

التكليف :

نستطيع مما تقدم ان نعرف قول المعتزلة في التكليف ، وفي من يجب عليه ومن لا يجب . والحق اننا نكاد نلمح - بصفة اجمالية - انهم يربطون بين الحرية الانسانية والعقل من جهة ، وبين التكليف والمحاسبة من جهة اخرى . فالمكلف عندهم ينبغي ان يكون مزوداً بالعقل أولاً ليُدرك مسؤوليته ، ثم ان يكون مختاراً حراً في تصرفاته - ان شاء اتبع طريق الهدى . وهو مدرك له فيثاب ، وان شاء اتبع هواه - وهو مدرك له - فيعاقب .

(١) فجر الاسلام ص ٢٩٤

(٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) ضحى الاسلام ج ٣ - ص ٣٩

أما القول بأن كل شيء مقدر من الله منذ الأزل فإنه ينفي - في رأيهم - المسؤولية الانسانية ، وليس الله ظالماً حتى يفعل هذا . بل إن تمام العدل الإلهي ان يعطي حرية في الفعل ، ليحاسب عن طريقها عباده . فإن الاجسام - كما يرى الاسكافي - تدل بانفسها على أن الله ليس بظالم^(١) ومن العدل الا يحاسب على فعل قدره منذ الأزل .

عند ابي الهذيل مثلاً ان العبد مكلف بإيجاب الفطرة - بالطبيعة والجبلة - والعقل قبل ورود الوحي ، بان يعرف الله ويقدم على الحسن كالصدق ، ويعرض عن القبيح كالكذب والجور^(٢) .

فكان التكليف مرتبطاً بالعقل . ما دام الله سبحانه وتعالى قد أعطانا عقلاً نميز به ، فهذا وحده يكفي لتكليفنا ومسئوليتنا . ونحن نجد ان ابراهيم النظام يرى نفس رأي ابي الهذيل ، لكن ثمانية بن اشرس يخالفها فيقول ، ان الانسان الذي لا يتوصل إلى معرفة الله ومعرفة الحسن والقبيح ، رغم وجود عقله ، وليس عليه امر ولا نهي ، لأنه مخلوق للعبارة والسخره ، فالتكليف مرفوع عنه إذن . ويرى نفس رأيه الجاحظية^(٣) .

الصلاح والاصلاح :

من دأب العقل البشري - في كل زمان ومكان - أن يبحث عن العلل والاسباب في كل ما يرى من ظواهر وافعال . لكن هناك طوائف من البشر تكتفي بمجرد التسليم والايان بما ترى دون تنقيب او رغبة في الكشف عن المجهول . ويأبى المعتزلة - وقد اتخذوا من العقل قائداً لهم ومرشداً - الا أن يعللوا أفعال الله وخلقه . فيقولون مثلاً انه خلق هذا العالم لغرض وغاية او لحكمة ، فان العمل بدون غرض وغاية عبث وسفه تعالى الله عن ذلك علواً

(١) (الانتصار) للخياط ص ٩٠

(٢) تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٠٩

(٣) التبصير في الدين - ص ٧٤

كبيراً ، ولما كان الله عادلاً غير ظالم ، وكان حكيماً ، وكان جواداً ، فانه خلق كل شيء لصلاح عباده وخيرهم .

والحكيم من يفعل احد امرين ؛ اما ان ينتفع ، او ينفع غيره . ولما تقدس الرب تعالى عن الانتفاع تعيين انه انما يفعل لينفع غيره ، فلا يخلو فعل من افعاله من صلاح (١) .

هذا هو الاساس الذي بنى عليه المعتزلة نظريتهم المشهورة في الصلاح والاصلاح ، وفي ان كل موجود كامل ، وان كل خلق وفعل لله متقن .

الصحة ، والغنى ، والقوة ، والجنة صلاح لمن اعطوها . والمرض ، والفقر ، والضعف ، والنار ، صلاح لمن اعطوها . لان الاخيرة لورد اصحابها لفعلا اسوأ مما استحقوا عليه العقاب — اذا اعتبرناها عقاباً — فيزداد عقابهم ، وليس في هذا صلاح لهم (٢) .

ثم : هل تجب على الله رعاية الاصلح ؟ ..

قل بعضهم ؛ تجب كرعاية الصلاح ، وقال بعضهم ، لا تجب ، اذ الاصلح لا نهاية له ، فلا اصلح الا وفوقه ما هو اصلح منه (٣) .

لكن قسماً منهم يرى انه ليس هناك اصلح مما هو كائن ، اي (ليس في الامكان ابداع مما كان) . فالله الحكيم المتقن لا يخلق الا الاصلح . ونشأت عن هذه المواقف تفريعات كثيرة — سواء بين شيوخ المعتزلة ، او بينهم وبين الفرق الاخرى .

ارجاع مقالات المعتزلة الى اصولهم الخمسة :

من الواضح للقارىء في تاريخ ومقالات المعتزلة ، أن هذه المقالات تستند

(١) نهاية الاقدام ص ٣٩٧ - ٣٩٨

(٢) من مشكلة الصلاح والاصلاح ينشأ انقلاب الاشعري ضد المعتزلة ، وسيأتي تفصيله فيما بعد .

(٣) نهاية الاقدام ص ٣٩٨

الى مبادئهم - أو أصولهم - الخمسة الأولى التي مر ذكرها. وهي : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فعن أصل التوحيد كانت مقالاتهم عن التنزيه المطلق ، ونفي التشبيه ، حتى وصلوا الى نفي الرؤية الحسية ونفي الصفات الزائدة على الذات المشابهة لصفات الانسان ، والقول بأن القرآن مخلوق ، خشية أن يشارك الله في القدم . وكانت هذه اكبر المسائل في هذا الميدان .

وعن اصل العدل رأوا أن الله عادل فلا يكلف نفساً إلا وسعها ، ولا يعذب الطفل ظمأً ، ولا يقدر شيئاً ثم يعاقب على فعله .

وعن اصل الوعد والوعيد نشأت الفكرة القائلة بأن الله تعالى لا بد يشيب المحسنين ويعاقب المذنبين ، ولا مناص من تنفيذ وعده ووعيده .

وعن اصل المنزلة بين المنزلتين ظهر القول في صاحب الكبيرة ، وفي معنى الايمان والكفر ، واتخذ المعتزلة موقفهم المستقل الخاص في هذا المجال .

وأخيراً كان اصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الذي حدد وجهة المعتزلة ومحاربتهم للزيغ والاحاد ، ووقوفهم في وجه الطوائف المنحرفة سواء كان هذا الانحراف عن حسن نية أو سوء قصد . واشيؤخهم - من امثال عمرو بن عبيد - مواقف مشهورة تتسم بالقوة في الحق ، والصلابة في الدين ، والدفاع عن كل ما هو فاضل وخير وحسن .

الدِّيَانَةُ الْعَقْلِيَّةُ

الدِّيانَةُ الْعَقْلِيَّةُ

التكليف بدون وحي - النبوة والأنبياء - المعجزات

يتبين لنا من خلال ما سبق بجلاء مدى تأكيد المعتزلة لأهمية العقل وسلطانه والاعتزاز به كمصدر أول للمعرفة - سواء المعرفة الميتافيزيقية المتعلقة بالله سبحانه وتعالى ، وبالأحكام على الأفعال من الوجهة الدينية ، أو المعرفة الفيزيقية الطبيعية .. معرفة المحسوسات عن طريق التجربة والشك ، ولهذا موضع بحث آخر إن شاء الله .

التكليف بدون وحي :

قلنا إن شيوخ المعتزلة جميعاً تقريباً جعلوا معرفة الله ، والمحسنات والمقبحات ، واجبات عقلية . أي ان على العقل أن يصل الى هذه المعرفة ويحصلها ضرورة ويتمادى ابو الهذيل حتى يجعل العقاب الأبدي جزاء من لا يعمل الحسن ويترك القبيح بحكم عقله ، أي انه يكلف معرفة الخير والشر ، والعمل بمقتضى هذه المعرفة - حتى وان لم يرسل له الله رسولاً بشرع يبين له الحلال من الحرام والحسن من القبيح .

وكنتيجة طبيعية لهذا الموقف العقلي الحاد ، وللتطور الذي حدث لافكار المعتزلة ، وغلوهم في الأخذ بأحكام العقل ، ظهر هناك اتجاه الى ما نسميه (الديانة العقلية) أو (الديانة الطبيعية) أو هو بحسب تعبير الشهرستاني : « الشريعة العقلية » التي تعتمد على العقل وحده دون حاجة الى رسول أو نبي ،

وهو اتجاه يظهر لنا مدى الامعان في تقديس العقل ، والاستغناء به عن سواه .

ونحن نرى لهذا الاتجاه شبيهاً له في العصر الحديث – وفي القرن السابع عشر على وجه التحديد – لدى مدرسة (افلاطوني كمبردج – Cambridge Platonists) وسنفرد لهذا الموضوع جزءاً خاصاً من هذا البحث ، نقارن فيه بين الاتجاهين ، والديانتين . إن شاء الله .

لكن قبل الاسترسال في هذا الموضوع ، نحب ان نلقي ضوءاً – في شيء من الايجاز – على موقف المعتزلة من الأنبياء والنبوات . ثم موقفهم من المعجزات التي غالباً ما تصاحب الرسل كدليل على صدقهم وانهم جاءوا مبعوثين من عند الله جل شأنه . وكذلك موقفهم من كرامات الأولياء ، والخرافات والأساطير ، مع الإشارة الى اتجاههم التجريبي في ميدان العلم ، واستخدامهم الشك المنهجي فيه .

النبوة والانبياء :

خاض المعتزلة – فيما خاضوا – في موضوع النبوة والأنبياء . هل النبوة جائزة ، ام واجبة ، ام مستحيلة ؟ وما تبرير ارسال الرسل ؟ وكيف نوفق بين الشرائع التي يأتون بها وبين العقل ؟ وهل الأنبياء معصومون عن الخطأ أم غير معصومين ؟ .. الى آخر هذه الأسئلة وامثالها .

وكان ذلك نتيجة طبيعية لبحث المعتزلة في المعجزات ، ومدى صحتها ، أو صحة حدوثها ، وضرورتها لتصديق الرسل .

إذ أن اغلب شيوخ المعتزلة وقفوا موقف المتشكك في وقوع مثل هذه المعجزات الخارقة للعادة والمنسوبة للنبي الكريم (ص) مثل انشقاق القمر ونبع الماء من بين انامله وكلام الحصى في كفه السخ ... هم لم يشكوا في وقوع المعجزات ارتياباً في قدرة الله على إحداثها ، وانما اكتفاء باستعمال العقل في تصديق (الرسول) أو تكذيبه . فإن من الواضح أن الله قادر على فعل

الخارق للعادة واحداً - لكن ليس في القرآن وحده - كشيء معجز لم تكن للبشر القدرة على أن يأتي بمثلها ، سواء من حيث اللغة والصياغة والاسلوب أو من حيث الإخبار عن حوادث مقبلة والتنبؤ بالغيب - ليس فيه الكفاية معجزة للنبي (ص) ؟ ...

ثم ألا ينبغي أن نعطي العقل فرصته في اكتشاف الحق من الباطل ، باستعماله في تقرير صدق الرسالة من عدمه ، ودون اللجوء الى فوارق الطبيعة كبراهين لا تقبل النقض ؟ ..

من هنا كان تشكك المعتزلة في المعجزات ، بل وإنكار بعضهم لها (١) . ولقد ربط مؤرخو الملل والفرق - واغلبهم من الاشاعرة - بين موقف

(١) يبدو ان اشهر من انكر المعجزات - ولعله الوحيد الذي اعلن رأيه صراحة وتمسك به - هو ابراهيم بن سيار النظام ، ورغم ان عدداً من شيوخ المعتزلة وافق النظام في رأيه وما ذهب اليه الا ان أحداً لم يجهر به جهراً هو به .

غير أن تطوراً كبيراً - بل تغييراً شاملاً - في موقف المعتزلة حدث بعد ذلك على يد القاضي عبد الجبار بن أحمد . فقد ألف هذا الزعيم المعتزلي كتاباً كبيراً بعنوان (تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم) على اسس اربعة : ١ - أن الرسول جاء باخبار الامم السابقة - ٢ - وجاء باخبار العقائد والنحل السابقة . ٣ - وانه اخبر بالغيوب « وایراد هذه الأمور بهذه الدقة وحصول ما أخبر به الرسول من كثير من الغيوب لا يمكن أن يكون من انسان امي الا اذا كان يرد عليه وحي » ٤ - ثم ایراد المعجزات ، وخوارق القوانين الطبيعية ، وفي هذا كان يرد على النظام ، فاثبت انشقاق القمر ، واطعام العدد الكثير بالطعام القليل ، وحنين الجذع ، وكلام الحصا ، ونبع الماء من انامل الرسول .. وكل ما ورد عن طريق الأخبار الصحيحة .

ولعل هذا التغيير في موقف المعتزلة من مسألة المعجزات كان لأسباب عديدة ، اهمها في رأيي أن المسلمين لم يكونوا يقبلوا ابدأ الطعن في معجزات الرسول ، وخاصة المعارضين للمعتزلة الذين اتخذوا مذهبوا اليه سلاحاً قوياً شروه في وجوههم ، كذلك يجوز ان يكون القاضي عبد الجبار فقيهاً أثراً في هذا التعديل ، كما لا ننس انه كان في بادىء امره اشعرياً ثم صار معتزلياً ولا بد انه نادى بهذا التعديل في موقف المعتزلة باثر من نشاته الأولى .

المعتزلة من جهة والبراهمة (١) من جهة اخرى ، في مسألة النبوات محاولة منهم تشويه صورة خصومهم لدى العامة من المسلمين .

فقالوا بانهم يقلدوت البراهمة في عدم ضرورة إرسال الرسل وكفاية العقول (٢) كما يفعل الباقلاني المعروف بتعصبه الشديد ضد المعتزلة .

لكن الغزالي في كتابه (الاقتصاد في الاعتقاد) ومحمد بن عبد الكريم الشهرستاني في كتابه (نهاية الاقدام في علم الكلام) يوردان فارقاً كبيراً بل تضاداً تاماً بين الطائفتين .

فبينما يقول البراهمة باستحالة النبوات عقلاً — إذ النبوة عندهم إما مخالفة للعقل فتنبذ وتطرح ، وإما موافقة له فلا حاجة لها — يرى المعتزلة وجوب ارسال الرسل وظهور النبوات ، بناء على نظريتهم في اللطف ، وأن الله لا يفعل بعباده الا الأفضل . اذ أن من اللطف ان ترشد الجاهل وتبين للغافل وتسهل للمستصعب . وهذا ما يفعل الله سبحانه وتعالى ، ولذا وجب ارسال الرسل (٣) فإن التكليف كلها ألطاف ، وبعثة الانبياء وشرع الشرائع وتمهيد الاحكام والتنبيه على الطريق الأصوب كلها ألطاف (٤) .

بل يصل الأمر الى ان يرد المعتزلة على البراهمة — رداً عقلياً — كعادتهم فيقول القاضي عبد الجبار بن احمد : « كل ما على المكلف فعله او تركه قد ركبه الله جملة في العقول . وانما لا يكون في قوة العقول التنبيه على تفاصيلها . وهذا فصل اذا عرفته تينت أن كل التكاليف مطابقة للعقول ، وكذلك

(١) طائفة هندية تنكر امكان ارسال الرسل .

(٢) « التمهيد » ص ١٢١

(٣) نهاية الاقدام ص ٤٩٥

(٤) الملل والنحل ص ١٢١ . ويعرفون اللطف بانه ما به يقرب العبد من الطاعة ويبعد عن

المعصية ، اوجبه الله على نفسه تفضلاً ايجاب جود لا ايجاب تكليف .

احوال المعاملات وما يتصل بالنفع والضرر ، وظهر لك بطلان مذهب البراهمة في ادعائهم أن الشرائع وقعت مخالفة للعقول . « (١)

لكن أهل السنة يعتقدون أن النبوات جائزة وليست مستحيلة أو واجبة وهذا موقف وسط فيه الخيار لله سبحانه ليتصرف كيف يشاء بدون احالة أو ايجاب .

كذلك يربط المعتزلة بين الاختيار الانساني من جهة وبين ارسال الرسل من جهة اخرى ، ويبنّون على موقفهم المعادي للجبر والمؤيد لشعور الانسان بحريته ومسئوليته ، نظرتهم الى الاختيار كمبرر لهذه الرسائل .

فعند (الفوطي) انه لو علم الله وقدر كل شيء لما كان هناك ضرورة لإرسال الرسل . إذ كيف يقدر شيئاً ، ثم يبعث بمن يُنبئ ويُعلم دون فائدة ولا جدوى ، ما دام كل شيء مسطراً منذ الأزل ؟ .. ففي الرسائل إذن تبرير للتكليف . وفي الاختيار الانساني تبرير للرسالات .

والحق أن المعتزلة - رغم إيمانهم بالنبوات - لا يغفلون في تقديس أصحابها وتنزيههم عن الأخطاء . فهم بشر مثلنا يخطئون ويزلون - وان كانوا معصومين من الخطأ في تبليغ الرسالات .

فقد أخطأ آدم عليه السلام فأخرج من الجنة ، وأخطأ موسى عليه السلام بقتل رجل ، وعبس محمد ﷺ في وجه رجل فقير فعاتبه ربه في سورة «عبس» (عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ؟ ..) (٢) . لكن ذنوبهم جميعها مغفورة ، فقد غفر الله لرسله ما تقدم من ذنبهم وما تأخر (٣) .

(١) المجموع من المحيط بالتكليف ص ١٣

(٢) سورة : عبس آية ١ - ٣ .

(٣) الانتصار ص ٩٤ - ٩٥ / والغريب ان الشهرستاني يذكر في (الملل والنحل) ان

المعتزلة يبالفون في عصمة الانبياء عن الذنوب صفائرها وكبائرها . ص ١٣٠ ج ١ .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن شيوخ المعتزلة الذين تمسكوا بكفاية العقول . وأن العقل وحده يقوم مقام الأنبياء ، من أمثال أبي علي الجبلي وابنه أبي هاشم .. هؤلاء الشيوخ كانوا يرون أن من مهمة الأنبياء الكبرى تحديد الأحكام والعبادات ، من مثل تحديد موعد الصوم والصلاة والزكاة وكيفيةها ، وإعدادها وتوقيتها ، إلى آخر التشريعات المعروفة في العبادات . إذ أنه ليس من مهمة العقل معرفة هذه الأشياء التفصيلية ، فيكون عمل النبي تبيانها وشرحها لتطبيقها .

آل البيت والصحابة :

كذلك كان المعتزلة - الأوائل منهم خاصة - لا يحملون احتراماً زائداً لآل البيت والصحابة رضي الله عنهم . لا عن نفور وسخرية ، ولكن اتباعاً للعقل ، واحتراماً لمكانته ، وبعداً عن التقليد الأعمى في محبة آل النبي وصحبه . فقد وقف المعتزلة موقف النقد من بعض الصحابة بل والتجريح والتكذيب . فنقدوا عمر بن الخطاب بل وعابوه ، ونقدوا عثمان في بعض تصرفاته ، وأكذبوا عبدالله بن مسعود وأبا هريرة في كثير من الأحاديث التي أوردوها ولا تتفق مع العقل السليم .

وكان نقدهم للصحابة ذا فائدة عظيمة في تاريخ الإسلام ، إذ أبعد عنهم تلك الهالة التي أحاطهم بها عامة المسلمين ، حتى كادوا يبلغون بهم مرتبة النبوة والألوهية . فخفف موقف المعتزلة من هذه الغلواء ، وأبقى الصحابة - رضوان الله عليهم - حيث أرادهم الله بشراً ، يخطئون ويصيبون .

أما بالنسبة لآل البيت فقد اتخذ المعتزلة موقف التشيع المعتدل المتعقل ، الذي يرى في آل أبي طالب ذري حق يجب ان يُناصروا ، وليسوا أنصاف آلهة يعبدون ، وينعون على الذين يحاولون تأليه آل البيت ورفعهم فوق منزلة البشر بأنهم إنما يضرونهم بعملهم هذا ولا ينفعونهم . فلو أريد لآل البيت الفوز لوجب عليهم التعلم وسماع العلماء وحضور مجالسهم وأن يحثوا على طلب

العلم ومجالسة أهله ، والاختلاف اليهم ودرس كتبهم حتى يكونوا في معرفة ما يريدونه منهم ويرشحونه لهم كأعدائهم^(١) . ولا ينبغي أن يقصوا عليهم أخباراً تلهيهم عن العمل والعلم ، أو يوهموهم بأن المعاصي لا تضرهم ، وأن الواحد منهم يشفع في من أراد أن يشفع فيه !! ذلك لأن الاقتصاد في التشيع - كما يرى الخياط - حق وهو وضع آل البيت حيث وضعهم الله^(٢) .

وفي هذا الموقف الذي اتخذته الجاحظ وغيره من أئمة المعتزلة نرى التحرر الكامل من التقليد والتبعية واضحا ، وإعمال العقل . بل هذا (عين العقل) بالنسبة لموضوع من أخطر الموضوعات وأكثرها حساسية من الناحيتين الدينية والسياسية .

لمعجزات ، والكرامات والخرافات :

تظهر السمة العقلية للفكر المعتزلي في مجالات كثيرة ، وهي تتضح أيضاً في مجال الحديث عن المعجزات والآيات التي يأتي بها الأنبياء ، كدليل على صدقهم . ومع أن المعتزلة لم ينكروا المعجزات جملة ، لا أن بوادر شك في المعجزات التي لم تجتمع لها قرائن كافية ترجحها وتثبت صحة حدوثها ، تبين في ثنايا الحديث حول هذا الموضوع .

فإننا نرى إبراهيم النظام مثلاً يكذب رواية ابن مسعود عن انشقاق القمر ، ويحتج بأن القمر لا يمكن أن ينشق لابن مسعود وحده ، وإلا فلم لم يره كل العالمين ؟!

وهذا تساؤل معقول . وهو يفسر الآية (اقتربت الساعة وانشق القمر^(٣)) بأنها إنذار وتنبية بأن القمر سينشق في المستقبل وليس في الماضي

(١) الانتصار ص ١٥٤ .

(٢) نفس المصدر ص ١٥٦ .

(٣) سورة : القمر آية : ١

كذلك شك بعضهم في كلام الحصا ونبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ حيث إن هذه الخوارق لم تثبت ثبوتاً قطعياً^(١) .

أما عن كرامات الأولياء ، فقد انكرها المعتزلة إنكاراً تاماً - كما يروي البغدادي في (الفرق بين الفرق) - ولم يسلّموا بها .

وأغلب الظن عندي أن المعتزلة كانوا لا يصدقون بما يروى عن معجزات الأنبياء ايضاً - سياقاً مع تحكيمهم للعقل وتمسكهم به - وإن منعهم من إظهار آرائهم الصريحة خوف من العامة ، ومن الخوض في هذا الموضوع الشائك الخطير . إذ لا ريب أن العامة يربطون دائماً بين الكفر وبين إنكار المعجزات والخوارق . وذلك لأن إيمانهم يقوم على جانب كبير من الحسية ، وليس إيماناً عقلياً مما يتمتع به الخاصة فحسب .

أما الخرافات السارية بين الناس فإن المعتزلة لم يتورعوا عن الجهر بالسخرية منها وتسفيه أصحابها والهزء بهم . ونحن واجدون في الجاحظ أكبر ممثل لهذه النزعة ، خاصة في كتاب (الحيوان) . وكان حرياً بذوي النزعة العقلية أن يهزأوا ممن يقولون بزواج البشر من السعالي ، وبالثعبان ذي الرأسين ، وبغيرها من الخرافات .

فإذا ما رُمي أحدهم بتأكيدها ، فإن أصحابه سرعان ما يهبون للدفاع عنه ونفي هذه التهمة الباطلة .
نقرأ في (الانتصار) مثلاً :

« ثم إن صاحب الكتاب - ابن الروندي - خبر بأخبار كأنها من خرافات النساء والصبيان ... ثم ذكر التصديق بالنجوم فرمى به أبا مجالد ، وما رأيت أحداً كان أغلظ على من صدق بها منه ، ولا أشد إقداماً على من فعله منه . ولا رأيت أحداً أشد تصديقاً من هذا الماجن لها . فعمكس القصة وأضاف إلى أبي

(١) ارجع لكتاب الدكتور ابي ريدة : (ابراهيم بن سيار النظام) ص ١٦٥ - ١٦٦ .

مجالد ما قد عرف هو الخبيث به « (١) .

أما التحرر من التقليد والمتابعة ، والبحث عن الحقيقة بأساليب الشك المنهجي ، والتدقيق العلمي المبني على التجربة المحسوسة ، فإن هذا ما اشتهر به المعتزلة وشيوخهم ، من أمثال النظام والجاحظ ، وتروى عن (تجاربهم) العلمية أقاصيص كثيرة تدل على اهتمامهم بالواقع العملي وعدم انسياقهم وراء الاعتقادات التي لا تثبت التجربة الحسية صحتها. وليس هذا محل الإطناب في هذا المجال . فلنكتفِ بالإشارة العابرة .

الديانة العقلية :

رأينا مما تقدم مدى طغيان الاتجاه إلى العقل والاعتراف بسلطانه لدى الغالبية العظمى من شيوخ المعتزلة . ونقول (طغيان) قاصدين ما تحمله هذه الكلمة من معنى التسلط والسيطرة المطلقة على جوانب التفكير المعتزلي ومناحيه . ذلك أن المعتزلة تبادوا في هذا السبيل حتى كاد بعضهم ينكر ما عداه من أمور لا تقع تحت طائلة العقل . فإذا ما تعارض العقل مع الدين رجحوا الأول على الثاني بتأويل أو بغير تأويل . المهم أن العقل هو المسيطر وهو السيد في جميع الحالات .

وإذا كانت أهل السنة - والاشاعرة من بعد - لم ينكروا أهمية العقل ودوره الرئيسي الكبير ، لكنهم جعلوه خاضعاً للشرع ، وموقوفاً على خدمة الدين ، بأن صيروه وسيلة للفهم والاستدلال والبرهنة على ما جاء به الوحي ، فإن المعتزلة قلبوا الآية ، وجعلوا من الدين خادماً للعقل ومؤيداً لأحكامه . فإذا ما تصادم الطرفان غلبوا العقل ونصروه .

القضية إذن أصبحت قضية صراع بين الجانبين ، يقف فيها كل فريق موقفاً يناقض الآخر ويخالفه ، ومن هنا كان هذا النزاع الحاد العنيف ، وتبادل الاتهام

(١) الانتصار . ص ١٠٣

بالكفر والزندقة والمروق من الدين ، والبعد عن روح الإسلام . ومن هنا كان تمادي كل فريق في التعصب لمذهبه والانحياز الكامل له .

أهل السنة والسلفيون عامة اشتدوا في الحرب على العقل ، ورفضوا التسليم بأحكامه إلا خاضعة للدين والشرع ، والقرآن والسنة .

وأهل الاعتزال تمادوا في تمجيد العقل وتسويده ، حتى وصلوا آخر المطاف . وكانت « الديانة العقلية » أو « الطبيعية » هي آخر المطاف .

فما هي هذه الديانة ؟ ..

الحق أن بوادرها كانت قد ظهرت متناثرة هنا وهناك في آراء شيوخ المعتزلة من الطبقة الثانية والثالثة من أمثال أبي الهذيل والنظام والجاحظ ، في ثنايا حديثهم عن المعرفة الضرورية ، والتحسين والتقبيح العقليين ، والتكليف . لكنها برزت تماماً على يد رجال المرحلة الرابعة والاخيرة (١) وخاصة عند أبي علي الجبائي وابنه أبي هاشم .

ويحسن بنا أن نبادر إلى توضيح المقصود بالديانة العقلية قبل أن يلتبس الأمر ، فنقول : إنها ليست ديانة بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة ، وما تحتوي عليه من تشريعات وطقوس وشعائر وعبادات ، ولم يصل الأمر إلى اعلانها ديناً ورسالة في يوم من الأيام على يد المعتزلة - وإن كانت قد ظهرت في بداية القرن السابع عشر على يد جماعة من المفكرين الانجليز سيأتي ذكرهم - ولكنها اتجاه عقلي أشبه بالاعتقاد في إله خالق عن طريق النظر ، دون الاستعانة - كما يحدث عادة - برسالة ووحى منزل .

ولقد سبق أن رأينا - خلال دراستنا الماضية - كيف نشأ القول بالتكليف من غير وحي، يوحى ، وكيف أوجب بعض شيوخ المعتزلة على المفكر العاقل النظر ومعرفة الله تعالى بل ومعرفة صفاته ، وأوجبوا عليه فعل الحسن وترك

(١) المقصود قبل انفصال الأشعري .

القبیح ، عقلاً بدون امر أو نهی . ثم رأينا كيف كان أبو الهذيل العلاق مثلاً يرى أن الله سيعاقب المفكر الذي لا يأتي بما ذكرناه ويخلده من النار .. إلخ . من مجموع هذه الآراء المعتمدة على العقل رحدة . ومن التدرج إلى القول بقصر عمل الرسول على تحديد الأحكام وتبيين المعارف التي لا يبلغها العقل دون معونة كالعبادات ونحوها . ومن القول بضرورة معرفة الله والخير والشر وغير ذلك من أمور عقلية صرفة . من كل هذا تتكون الديانة العقلية « او العقيدة الطبيعية » .

يقول الشهرستاني عند حديثه عن أبي علي الجبائي وابنه أبي هاشم ، بعد أن بين آراءهما في مختلف الموضوعات :

واتفقا على ان المعرفة ، وشكر المنعم ، ومعرفة الحسن والقبح واجبات عقلية ..

وأثبتا شريعة عقلية ، وردا الشريعة النبوية الى مقدرات الاحكام ومؤقتات الطاعات التي لا يتطرق اليها عقل ولا يهتدي اليها فكر ... والايان عندهما اسم مدح، وهو عبارة عن خصال الخير التي اذا اجتمعت في شخص سمي (مؤمناً)^(١) .

من هنا نرى كيف تدرجت النزعة العقلية لدى المعتزلة وتطورت ، حتى أصبحوا لا يرون محيصاً من احتضانها تماماً ، والمناداة بسيادة العقل حتى في أخص الخصائص الدينية وهو الإيمان ، فيتحول عندهم إلى اسم مدح نتيجة فعل الخير بلا قيد ولا شرط .

وهذا لعمري منتهى الإفراط في الاعتماد على العقل البشري .

نادى الجبائيان إذن بالشريعة العقلية وأثبتاها ، أي أنها اكتفيا بها كمصدر

(١) الملل والنحل ص ١٢٠ ج ١

للمعرفة والحكم . وبقي عليها أن يقررا مصير الشريعة النبوية ومدى الحاجة إليها . فقالا إن مردها إلى مقدرات الأحكام - أي تقريرها كالصلاة والصوم ونحوها - ومؤقتات الطاعات - أي توقيت هذه العبادات وطريقة أدائها . إننا وإن كنا قد وجدنا ظهور الشريعة العقلية هذه كنتيجة حتمية لتطور النزعة العقلية عند المعتزلة ، إلا أن « دي بور » - كعادة المستشرقين دائما - يضيف عاملا آخر إلى هذا الظهور ، فيقول :

« إن المعتزلة نظروا في الأديان الثلاثة السماوية يقارنون بعضها ببعض ، بل يقارنون هذه الأديان بالتعاليم الدينية عند الفرس والهنود ، وبالأراء ، والفلسفية أيضا ، فتوصلوا بذلك إلى شريعة فطرية عقلية توفق بين الآراء المتخالفة ، وهذه الشريعة تقوم على أن في الإنسان علما فطريا يؤدي بالضرورة إلى معرفة إله واحد خالق حكيم ، وهب الإنسان عقلا به يعرفه وبه يميز الخير من الشر . ويقابل هذه الديانة الطبيعية أو العقلية المعارف التي ينزل بها الوحي ، وهي مستفادة من مصدر خارج عن فطرة الإنسان ، ^(١) .

كان (دي بور) يوشك أن يقول بأن هذه الشريعة العقلية التي اثبتتها المعتزلة ليست سوى محاولة لتوحيد الأديان المتضاربة المختلفة ، أو هي خلاصة أهداف الأديان من جهة ثانية ، أو هي هروب من جميع الديانات والعقائد إلى عقيدة بسيطة سهلة تابعة من ذات الإنسان وحده دون مؤثر خارجي يكون تفسيره مدعاة للشقاق والخلاف . وهذا تفسير بعيد الاحتمال . فوحدة الأديان - رغم ظهورها فيما بعد لدى متصوفة المسلمين كمحيي الدين بن عربي - لم تخطر للمعتزلة على بال . إذ هم مسلمون متعصبون للإسلام ، ممنونون في التعصب مدافعون عنه ، مؤمنون بما جاء في القرآن الحكيم وبما انزل على الرسول الكريم . وإنما بدت هذه الديانة العقلية - كما قلت - نتيجة للتيار العقلي

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام . ص ١٠٥ وإلهامش .

المسيطر على تفكيرهم وآرائهم ونظرياتهم ، ولثقتهم المطلقة بالعقل وقدراته وسلطانه ، وكافتراض لما ينبغي ان يكون عليه الحال لو لم يكن هناك وحي من الله .

بين المعتزلة وافلاطوني كمبردج :

إن الحديث عن الديانة العقلية يذكرنا بما ظهر في منتصف وأواخر القرن السابع عشر في إنجلترا - وبالتحديد في جامعة كمبردج - من دعوة الى ديانة طبيعية فطرية تشبه الى حد كبير الديانة التي تبناها المعتزلة ، وتتفق معها في كثير من الآراء خاصة مسائل الحسن والقبح ، او الخير والشر العقليين ، وغيرهما من المسائل اللاهوتية الفلسفية . فهل كان افلاطونيو كمبردج متأثرين - على نحو ما - بآراء المعتزلة ؟ ... هذا ما لا نعرفه ولم يتحقق بعد . فعلى الرغم من وضوح تأثير الفلاسفة والعلماء الغربيين بالفلسفة الاسلامية ^(١) الا ان الستار لم يزح بعد عن علاقة افلاطونيو كمبردج بالمعتزلة.

من هم افلاطونيو كمبردج

هم جماعة من فلاسفة الانجليز اتخذ اغلبهم « كمبردج » مقراً لهم ، ظهوروا في اواسط واواخر القرن السابع عشر الميلادي ، وكانت تغلب عليهم النزعة التطهيرية الميالة الى التصوف ، ولا يحفلون كثيراً بالطقوس والشعائر الدينية . من اشهرهم رالف كدوورث ، هنري مور ، رتشارد كمبرلاند ، جون سميث وبنيامين وتشكوت .

كانت بحوثهم في الفلسفة والتصوف ذات صبغة متعمقة وان كانت خليطاً

(١) كما يعرف تأثير ابن رشد وابن سينا في هذا المجال . وتكشف الدراسات الحديثة عن نواحي اتفاق غريب بين آراء ديكارت والفرازي . كذلك ظهر اثر المسلمين في الاتجاه التجريبي الذي كان بداية النهضة الاوروبية الحديثة .

يشبهون به (اخوان الصفا) في الاسلام ، متأثرين في آرائهم بالافلاطونيين الجدد وبآراء افلوطين على وجه الخصوص .

اما الدين لديهم فقد كان عبارة عن طريقة للحياة قبل كل شيء هم جاءوا بافكار ذات اثير ملحوظ في نظرية المعرفة وفي الاخلاق لكن الملاحظ ان نظرياتهم وافكارهم كانت الى التصوف والتطهر الخلقي اميل ، وهذا اثر من آثار افلوطين ، رغم ان ويتشكوت كان لا يفتأ يذكر قارئه بأن « العقل سراج الله » (١) .

وكانوا هم الذين حفظوا الكنيسة الانجائزية من ان تفقد صلتها بالامة كما يقول بيرنت (٢) وذلك عن طريق محاربة الجدل الاسكولائي الذي سيطر عليها في اوائل القرن السابع عشر .

وقد لعب أفلاطونيو كمبردج دوراً طيباً في عالم الفلسفة واللاهوت . على ان « و. ر . سورلي » يذكر ان هذه الجماعة لم يكن كل رجالها فلاسفة ، او افلاطونيين . إذ أن اتجاههم الديني - في المحل الأول - هو الذي أدى الى اعتبارهم مدرسة وإعطائهم اسماً خاصاً هو (الرجال الأحرار) .

ولعمري ان في هذا شبيهاً كبيراً بين المعتزلة وأفلاطونيين كمبردج . إذ أن مباحث هؤلاء الكلامية هي مباحث تلك اللاهوتية .

وحتى الاسم الذي اشتهر الآخرون به (الرجال الأحرار) ينطبق على المعتزلة تمام الانطباق ، وهم يعرفون به اليوم لدى الدارسين الغربيين .

فماذا يقول أفلاطونيو كمبردج أيضاً ؟ ..

هم تجنبوا مراوغات اللاهوت المنتشرة ، وعارضوا التسرع في الإيمان

(١) انظر « الموسوعة الفلسفية المختصرة » / ١٩٦٣ .

(٢) A History of English Philosophy ص ٧٥ .

والحماس (أو ادعاء الوحي الخارجي) .. وقالوا بأن الدين الحقيقي يجب أن يتسق مع الحقيقة العقلية وركزوا على العوامل الاخلاقية والعقلية في الدين (١) الدين الحقيقي السليم اذن يجب ان يتفق مع العقل ولا يخرج عن نطاقه ، وإن كان هراء ولغواً . وهذا بالضبط هو موقف المعتزلة . وماذا عن الله ؟ ..

إن روح الطبيعة هي التي تقوم مقام الاله في الكون . فـ More مثلاً يرى ان « الكون الطبيعي بأجمعه تتخلله روح . هذه الروح العامة الانتشار ليست الإله ذاته ، بل هي روح الطبيعة » (٢) أما عن صفات الله ، فأهمها : الصدق ، والعدل ، والخيرية . الله صادق ، وعادل ، وخير . وماذا قال المعتزلة غير ذلك ؟ .. الله لديهم صادق لا يخلف وعده أو وعيده ، والله عادل وهم أهل العدل ، وهو خير فلا يبخل على عباده بل يفعل بهم الأصلح دائماً .

ثم نأتي إلى مسألة اخرى تتضح فيها الصلة بين المعتزلة وأفلاطوني كمبردج بجلاء ، وأعني بها مسألة الحسن والقبح العقليين . يرى (مور) أن : « الفضيلة ليست عادة ، بل قوة .. قوة عقلية للروح ملغية للعواطف .. فالعاطفة ليست خاضعة فحسب للطبيعة بل للعقل السليم . وكما أن ماهية الشيء تدرك بالفهم ، وأن المثلث (مثلاً) هو ما يدركه العقل كما هو كذلك ، فإن الشيء نفسه يمكن أن يقال في الأخلاق ؛ فتوجد أفكار غير متغيرة عن الخير والشر ، وهي التي يحكم فيها العقل ، فتوجد حقائق اخلاقية أولى ، أو مبادئ اخلاقية » (٣) أي أن العقل يحسن ويقبح ، وبه وحده يعرف الخير والشر . وهذه نظرية يتفق فيها (مور) مع المعتزلة تمام الاتفاق .

(١) A History of English Philosophy ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢) نفس المصدر ص ٨٤

(٣) نفس المصدر ص ٨٧

يقول (مور) : « إن كل الخير الأخلاقي - كما يسمى بحق - عقلي وإلهي . عقلي طالما حددت ماهيته وحقيقته وعرفت بالعقل ، إلهي طالما كانت حلاوته أكثر لذة ، وأكثر إمتاعاً بالفعل في تلك الملكة الإلهية التي بها نسمو إلى الإله الأكثر صفاءً وإطلاقاً . » (١)

الحرية الانسانية :

وكما تعرض المعتزلة لقضية الحرية الانسانية ، وللقدر ، كذلك فعل أفلاطونيو كمبردج . هم ناقشوا هاتين المسألتين وبينوا موقفهم الواضح منها . وعندما بدأ (رالف كدوورث) يكتب كتابه « النظام العقلي الحقيقي للكون » كان يضع في ذهنه فقط حديثاً عن الحرية والضرورة . (٢) .

ومثلما آمن المعتزلة بالاختيار الانساني وبحرية تصرف الانسان وأفعاله ، كذلك فعل أفلاطونيو كمبردج ؛ فوقفوا في وجه المنادين بالقضاء والقدر ، وعارضوا القول بالجبر وتحكم قوى خارجية في أفعال الانسان . وكانت هناك ثلاثة أنواع من القدرية (القول بأن كل شيء مقدر منذ الأزل) دحضها أفلاطونيو كمبردج وعارضوها .

الاولى : القدرية المادية الملحدة التي يسميها كدوورث بالديموقراطية .
والثانية : القدرية المؤمنة اللا خلقية التي تحيل كل شيء إلى الإله ، وتقيم التمييز بين الخير والشر على أسس تعسفية . وثالثها : شكل آخر من القدرية المؤمنة التي على الرغم من انها تقبل اضافات اخلاقية في الإله لا تترك مكاناً للحرية الفردية (٣) .

في وجه هذه الانماط الثلاثة من القدرية وقف أفلاطونيو كمبردج بشدة ،

(١) ص ٨٨

(٢) ص ٨٩

(٣) ص ٩٠

مؤيدين حرية الانسان واختياره وقدرته على الفعل والتصرف .. تماماً مثلما فعل المعتزلة من قبل .

ثم يبرز سؤال جديد :

ما هو مقياس الدين الصحيح في رأي أفلاطوني كمبرج ؟ أو بعبارة أخرى : ما هي أسس الدين الصحيح ؟..

هنا نجد أن (رالف كدوورث) - وهو من أشهر قاداتهم - يقدم ثلاثة أسس تشكل ضروريات الدين الصحيح - في رأيه - غير المعتمد على الوحي والتنزيل ، بل على العقل وحده :

١ - وجود الإله ؛ وهذا يمكن إثباته بالدليل إذا لم يكن معرفة ضرورية أولية .

٢ - الطبيعة الخالدة للخير ؛ بمعنى الخير ذو طبيعة ثابتة لا تتغير بتغير الظروف او الزمان أو المكان .

٣ - حرية الانسان ؛ وهذه تعطي الإنسان قيمته البشرية من حيث هو مخلوق مفكر عاقل ، حر التصرف ، مكلف ، محاسب على ما يفعل ، فيعاقب أو يثاب (١) .

هذه هي عناصر الدين الصحيح غير المشوب بالتأويلات والتفسيرات التي تبعد عن تيار العقل السليم ، وتجمعه مجرد خرافات وأساطير وطقوس . ولقد خطط « كدوورث » لكل من هذه العناصر الثلاثة مشروع كتاب مستقل يشرحه فيه . لكن الكتاب الأول فقط - وهو المعارض للألحاد - هو الذي أكمل ونشر .



هذه مقارنة عابرة بين مدرستين متباعدتين في الزمان ، لكنهما متقاربتان .

(١) نفس المصدر ص ٩٠ .

في الفكرة . ظهرت الاولى ممثلة لأحد التيارات الفكرية الإسلامية ، وظهرت الثانية بعدها بثمانية قرون في أقاصي الغرب المسيحي ، أحببنا الإشارة اليها حتى نتبين معالم سبق المسلمين في هذا المجال .. مجال احترام العقل وتحكيمه .

والآن وقد أحطنا علماً بجوانب كثيرة تظهر فيها النزعة العقلية في تفكير المعتزلة ، في مختلف المسائل التي تعرضوا لمناقشتها والخوض فيها ، وأدركنا كيف انتهى بهم الأمر الى اثبات هذه « الشريعة العقلية » .. فقد آن لنا ان نعرض لتيار جديد ظهر من صلب المعتزلة ، وانقلب عليهم . وأعني به التيار الأشعري .

إِنْفِلَافُ الْأَشْعَرِي

إِنْفِلَافُ الْأَشْعَرِيِّ

غلو المعتزلة في العقل - رد الفعل وأثره

تطور الأخذ بالعقل - كما لمسنا - عند المعتزلة كثيراً ، و مر بثلاث مراحل . فبعد أن كان العقل وسيلة لفهم الدين وتفسير نصوصه ، أصبح مساوياً للشرع وندأ يحاول المعتزلة التوفيق بينهما في جميع الحالات . ثم غلبوا العقل على النقل تغليباً كبيراً ، وعملوا على تطويع الوحي ليكون هو في خدمة العقل . وبهذا انقلب الامر الى عكس ما بدىء به ، ونشأ عن هذا الصراع الطويل الحاد بين أهل السنة وأهل الاعتزال . ثم ظهرت في القرن الثالث فرق كائكوامية وسواها تعارض اتجاه المعتزلة وتعاندهم ، وبدأت بوادر التمرد والضيق بهذه المناقشات والمجادلات المتزايدة . وفي هذه الاثناء حدث انقلاب الاشعري الشهير ، الذي غير موازين القوة ورجح كفة أهل السنة على أهل الاعتزال .

ولا ريب ان الغلو الشديد في التعقيل عند المعتزلة كان سبباً من أسباب انتقاض الكثيرين - ممن يشعرون بعمق العاطفة الدينية لديهم - على المعتزلة ونفورهم منهم . كما أن هذا التعقيل وما تبعه من مجادلات وأقوال في التكليف العقلي والمعرفة الضرورية ، والصالح والاصلاح ، أوقع شيوخ المعتزلة في تناقضات

عديدة ، جعلت من السهل على خصومهم قطعهم في الجسد الكلامي والنقاش الدائر حول مختلف المشكلات .

لكن بوادر الانتقاض على المعتزلة - حتى من أقرب تلاميذهم اليهم - كانت متجمعة في الأفق السياسي والثقافي والدين ، بسبب اتهامات أهل السنة ، يتبعهم عامة الشعب ، لهم بالاحاد والكفر وسبب عوامل التفكك والانحلال التي تسربت الى صفوفهم ، حتى بات يكفر بعضهم بعضاً ، ويتراشقون بأشنع التهم .

وكان ابو الحسن الأشعري (المتوفي سنة ٣٢٤ هـ) أحد تلامذة أبي علي الجبائي ، عاش في بيته ، ونما مع المعتزلة أربعين عاماً ، تشرب خلالها مذهب الاعتزال وأتقنه .

لكن حادثة صغيرة - تماماً مثلما حدث من واصل مع الحسن البصري - ونقاشاً دار حول مسألة الصلاح والأصلح جعلت أبا الحسن الأشعري ينقلب على المعتزلة ويعلن انفصاله عنهم ، وعودته إلى حظيرة أهل السنة (١) .

وتتلخص القصة - كما تروىها كتب الفرق - في أن الأشعري سأل استاذة : - أيها الشيخ ! ما تقول في ثلاثة : مؤمن وكافر وصبي ؟ فقال الجبائي : المؤمن من أهل الدرجات ، والكافر من أهل الدرجات ، والصبي من أهل النجاة .

فقال ابو الحسن : فإن أراد الصبي أن يرقى إلى أهل الدرجات ، هل يمكن ؟ قال الجبائي : لا . لأن المؤمن إنما نال هذه الدرجة بالطاعة ، وليس للصبي مثلها .

(١) راجع (تاريخ الفلسفة في الاسلام) . ص ١١٦ وما بعدها . (والمعتزلة) لزهدى جار الله ص ٢٥٤ - ٢٥٨ .

قال الاشعري : فإن قال التقصير ليس مني ، ولو أحييتني يا رب كنت عملت الطاعات كعمل المؤمن .

قال الجبائي : يقول له الله : كنت أعلم انك لو بقيت لعصيت ولعوقبت ، فراعيت مصلحتك وأمتك قبل أن تنتهي إلى سن التكليف .

قال الاشعري : فلو قال الكافر ؛ يا رب ! علمت حاله كما علمت حالي ، فهلا راعيت مصلحتي مثله ؟ !
فانقطع الجبائي ، وسكت .

ومنذ ذلك الحين أعلن الاشعري انفصاله عن المعتزلة ورجوعه الى حظيرة أهل السنة واتباع الامام أحمد بن حنبل (١) .

ولا شك ان الاشعري كان يبيت نية الانفصال والاستقلال ، بعد ما رأى من تحبط المعتزلة ، وما شاهد من تألب الفرق ضدهم ، ليتخذ بعد هذا طريقاً وسطاً (٢) بين اهل السنة والمعتزلة الذين لم يزل متأثراً بأرائهم ، وبالمشكلات التي خاضوا فيها ، وبطريقتهم في الجدل والكلام .

كان موقف الاشعري - ومن تبعه بعد ذلك - رد فعل معتدل ، حاول فيه باخلاص ان يوازن بين التيارات المتنازعة . ان نظرة واحدة الى اغلب آرائه الدينية والكلامية في مسائل خلق القرآن ، والصفات ، والافعال الالهية والانسانية ، ونحوها من المسائل ، لتبين بجلاء مبدأ التوسط الذي نهجه .

(١) تروى قصة انفصال الاشعري على انه اقام مع المعتزلة أربعين عاماً ، حتى صار اماماً للمعتزلة . ثم غاب خمسة عشر يوماً عن الناس ، ثم خرج الى الجامع وصعد المنبر وقال : معاشر الناس ! انما تغيبت عنكم هذه المدة لاني نظرت فتكافأت عندي الادلة ولم يترجح عندي شيء على شيء فاستهديت الله تعالى فهداني الى اعتقاد ما اودعته في كتبتي هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت اعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا . وانخلع من ثوب كان عليه ورمي به .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٤

لكن لعل اهم ما جاء به الاشعري - وان كان « دي بور » يقرر انه لم يأت بجديد - هي نظريته الشهيرة في الافعال الكسبية ، في محاولة لفض مشكلة الفعل الانساني ومدى نصيبه من الحرية الذاتية - وهي نظرية تتوسط بين الفريقين المتنازعين ؛ أهل السنة ، وأهل الاعتزال .

اما موقفه من العقل فكان موقف المعارض . اذ هو لا يعتبر العقل المستقل عن الوحي سبيلاً الى معرفة الشئون الالهية ، بقدر ما جعل العقل (الة) لفهم الوحي المنزل (١) .

وكان لانفصال الاشعري ودعوته الى مذهبه المعتدل الجديد أثره العميق في اضمحلال مذهب الاعتزال ، ثم انهياره بعد ذلك ، حين تضافرت العوامل السياسية مع التفكك الذي طرأ عليه ، والهجوم المستمر من قبل الفرق الاخرى ... فأذنت شمس المعتزلة بالمغيب .

ولم يلبث مذهب الاشعري - وان كان قد عورض بشدة من قبل الحنابلة ان ذاع وانتشر ، ، وأحيا مذهب اهل السنة من جديد ومكن له في الارض واصبح هو المدافع عن العقائد السنية ، وان لم يتخلص تماماً من تأثير المعتزلة .

بعض مواقف المعتزلة العقلية

بعض مواقف المعتزلة العقلية

مدى تطبيقهم لآرائهم - الحكم عليهم بالفشل أو النجاح ..

ان النزعة العقلية في تفكير المعتزلة روح تسري في جميع ما يكتبه شيوخهم ، وهي سمة ظاهرة تغلب على آرائهم الدينية والدنيوية . ورغم انك لن تجد ابواباً او كتباً تتحدث عن هذا الموضوع وحده وتشرحه وتبينه مذهباً شاملاً متكاملاً يسرون عليه وينتهجون نهجه ، الا انك عاثر حتماً على هذا المذهب العقلي في ثنايا شرحهم للمشكلات الكلامية المختلفة ، وتدليلهم على سلامة ما ذهبوا اليه . وانت مصطدم به أثناء قراءتك للمسائل الكبرى التي شغلت الازهان وشع من خلالها نور العقل المعتزلي الوهاج .

فإذا قدموا أدلة وبراهين فانهم يقدمون أدلة عقلية صرفة في مسائل دقيقة من مثل اثبات الله موجوداً ، واثبات حدوث الاشياء والافعال ، وانه المحدث وان الاعراض غير قديمة . ونلاحظ ان هذه الادلة العقلية كانت سهلة بسيطة اول الامر ثم تعقدت وتشعبت حتى بات من الصعب على غير المتخصص فهمها الا بعد معاناة ومعرفة بالاصطلاحات والمفاهيم اللغوية الفلسفية الخاصة^(١) فإذا ارادوا اثبات الله موجوداً مثلاً قالوا :

(١) راجع الجزء الثاني من : المجموع من المحيط بالتكليف . لابن متويه .

« الوجود صفة معقولة ، ولا يحد الوجود بلفظ اوضح منه .
والعلم بهذه الصفة عن طريق الجملة ضروري ، وانما يحتاج للاستدلال للمعرفة
بها عن طريق التفصيل (١) .

ثم يبني بعد ذلك على هذا المنطق - اي التسليم بمعرفة الله ضرورة . فلو
قلنا مثلاً لانسان : أنت موجود ، وانكر وجوده لكان مخبولاً فلا يناقش
فلو اعترف بوجوده وطلبنا تحديده بغير انه (موجود) لما استطعنا .

فللمعتزلة اذن بديهيات وأوليات لا يمكن الجدل فيها لانها من ضروريات
ادراك العقول .

ولما كانت بدايات الديانات هي في اثبات الله موجوداً ، كانت المعتزلة
سباقين الى إثبات هذا الوجود عقلاً ، للتدليل على قوة العقل من ناحية ،
وللبرهنة على غير المسلمين أو المؤمنين من ناحية أخرى ، ولأن القرآن نفسه
كان يفعل هذا بلفت الأنظار الى آيات الله في الكون .

والمتتبع لأدلتهم يرى فيها من الوضوح والقوة ما يدعو الى الإعجاب .
فعندما يقول أحدهم : ان العلم بصفة الشيء فرع عن العلم بذاته (٢) ، مثلاً
نجد أن هذا شيء بديهي ، فإننا إذا أثبتنا القدرة لله سبحانه عرفنا أنه موجود
إذ لا قادر غير موجود ، وهذا تفسير عقلي محض وتدليل سليم .

أو يقولون : إعلم أن إقامة الدليل على الشيء فرع على كونه في نفسه
معقولاً . فأما ما لا يعقل فأيراد الدلالة عليه لا وجه له (٣) .

وعندما يقولون : « إن النظر أول الواجبات » (٤) فإنهم يستدلون على

(١) كأنما العلم بالله خاصية عقلية .

(٢) ص ٢٦ من : المجموع من المحيط بالتكليف .

(٣) نفس المصدر ص ١٨ .

(٤) نفس المصدر ص ١٠ .

هذه النظرية بأن الدافع الأول للنظر هو الخوف من تركه ، وقد ثبت في العقل وجوب دفع الضرر حتى المحتمل منه .

وإذا تحدثوا عن قبح الظلم قالوا : إنك تعلم - بعقلك - قبح الظلم ، فإذا عرفت في شيء بعينه أنه ظلم كفاك هذا في علمك بقبحه (١) .

أي أنهم يحيلونك الى عقلك لتستعمله وتذكر به صفة القبح الكامنة ، الثابتة ، في الظلم ، ببديهية بسيطة واضحة .

وفي أواخر أيام ازدهار المعتزلة ظهرت النزعة العقلية كأوضح ما تكون ، وكانت مباحثهم في المسائل الطبيعية ذات الصبغة الفلسفية ، كالجزء الذي لا يتجزأ أو الجواهر ، والأعراض ، والأجسام ، والحركات ، والسكنات ، وطبائع الأشياء ، وغيرها ، نتيجة حتمية لاتجاهاتهم العقلية .

وجاء الجبائي ليقول - الى جانب آرائه العقلية الأخرى - إن العقل يتدخل حتى في إطلاقنا صفات الله واسمائه عليه . فنحن نسميه عادلاً ، أو خيراً ، أو صادقاً ، إذا ما رأى العقل ذلك ، لا على سبيل التلقين والمدح بل على أنها صفات وأسماء لعلم واحد .

ثم يثبت معنىً جديداً للبلوغ - الموجب للتكليف . فهو عنده ليس الاحتلام أو السن ، وإنما هو « تكامل العقل » ، والعقل هو العلم ، فكأن البلوغ تكامل العلم الذي ينقسم الى : علم الاضطرار ، والمشاهدة الحسية ، والنظر أو التفكير .

وليس معنى هذا أنه لا بد للمكلف من أن يكون كامل العلم (أو العقل) لكن لا بد له من نوع من العلم ليكون مكلفاً ، وهو الاضطرار الى معرفة الحسن والقبح (٢) .

(١) نفس المصدر ص ١٣ .

(٢) مقالات الاسلاميين للأشعري ج ٢ ص ١٥٥ .

لكن المعتزلة - وإن غالوا في تقدير العقل - لا يخرجون عن القول بأنه
من أعظم نعم الله علينا (١) .
فالعقل إذن نعمة من الله تعالى وإيس نعمة . فهو الوسيلة الى معرفة الخالق
وشكره .

ولقد سبق المعتزلة الفيلسوف الفرنسي (رينه ديكارت) R. DESCARTES
بزمن طويل في القول بأن العقل « هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس في العالم »
فقد كانوا يعتقدون أن كل فرد من بني البشر له نصيب مساو لغيره من العقل -
ما عدا المجانين وأضرابهم ، فهؤلاء خلقوا للسخرة والعبرة والموعظة .

وإن كان أحمد أمين يقرر أن عدم إدراك المعتزلة للتعاون بين العقول
جعلهم يغفلون في فرض آرائهم وعد من لا يفهم كالأنعام (٢) .
ولا ريب أن هذا موقف خاطيء لأن التفاوت في العقول واضح للعيان
وبه يتفاوت الناس في الفهم والادراك .

مدى تطبيق المعتزلة لآرائهم :

قلنا ان المعتزلة نادوا بالعقل ، وبالاختيار الانساني ، وبالحرية الفردية ،
وبآراء تدعو الى أن يختار كل انسان ما يحلو له فعله ، وهو يعلم أنه محاسب
بعد ذلك على ما يفعل ، وكذا ما يطيب له اعتقاده .. فهل طبق المعتزلة هذه
المعتقدات ؟ .. هم فعلوا ، ولم يفعلوا ..

فعلوا من حيث ايمانهم بالعقل كوسيلة أولى للمعرفة ، والتمسك به رغم ما
جر عليهم ذلك من بلاء ، ومن حيث الايمان بالنقد ، وبالتقد الذاتي فيما بينهم
ومن حيث الاهتمام بالمسائل العقلية في مجال العلم الطبيعي والاحتفال بالتجربة

(١) المجموع من المحيط بالتكليف ص ١٤ ج ١ .

(٢) ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٩٢ ط خامسة .

الحسية الواقعية ، ومن حيث التحرر من كثير من قيود التزمّت ومن الخرافات والخرعبلات والأساطير . لكنهم لم يفعلوا بالنسبة لخصومهم الذين عارضوهم في الرأي .. وتكفي محنة « خلق القرآن » لتبين مدى طغيان المعتزلة إبان سيطرتهم على الحكم وممالة الحكام لهم ، ومدى تضيقهم على معارضيهم حتى بلغ الأمر حد الجلد والقتل ^(١) ، وتنكرهم لمبدأ الحرية الفردية ، ومحاولتهم إرغام الناس جميعاً بقوة الحديد والنار ^(٢) ، بعد أن فشلت قوة الاقناع ، على اعتناق مذهبهم واعتقاد آرائهم . وقد لاقى أحمد بن حنبل وأتباعه من الأذى والاضطهاد ما ينبغي ان يربأ دعاة الحرية الانسانية عنه ، وما كان سبباً في نفور الناس من مذهبهم .

لقد فشل المعتزلة في تطبيق معتقدهم - وإن كان أحمد أمين يتلمس لهم المعاذير - إلا أنه لا يمكن لأية قوة من الأرض أن تدخل في رؤوس الناس فكرة يرفضونها ، مهما سمّت هذه الفكرة ، ومهما سلط السيف على الرؤوس .

(١) من الممكن الدفاع عن غلظة المعتزلة في معاملة خصومهم ، بأنهم ما فعلوا هذا إلا لثقتهم التامة بصحة معتقدهم ، كما أنهم - في جدالهم هؤلاء الخصوم - كانوا لا يلقون استجابة كبيرة للجدل والتسليم والاقتراع عند العجز عن رد الحجة والبرهان . فقد كان هؤلاء الخصوم - وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل - يلوذون بالصمت ويرفضون المسيرة في النقاش ، ويتمسكون برأي واحد لا يتزحزون عنه . كما حدث في جدل أحمد بن أبي دؤاد له في مسألة خلق القرآن . إذ كان موقف ابن حنبل سلبياً تماماً ولا يدل على رغبة في الفهم والاقتراع . كما أنه من الممكن الفصل بين اعتناق المعتزلة لمبدأ الحرية والعقل ، وبين شدتهم في العمل على تسويد مذهبهم . وهذا يحدث كثيراً من دعاة جميع الأفكار والمعتقدات .

(٢) أحمد أمين ٣ ضحى الإسلام ص ٧٣ ط سابعة .

نَظْرَةُ إِجْمَالِيَّةٍ

نَظَرَةُ إِجْمَالِيَّة

يُخِيلُ إِلَى الْآنَ أَنَّنَا قَدْ أَحْطْنَا بِصُورَةٍ - وَلَوْ بِسِيطَةٍ - عَنْ طَبِيعَةِ وَمِمِيزَاتِ الْفِكْرِ الْمُعْتَزَلِيِّ ، وَأَدْرَكْنَا الطَّابِعَ الْعَقْلِيَّ لِهَذَا الْفِكْرِ الْمُتَحَرِّرِ .

وَلَا يَنْبَغِي هُنَا - وَقَدْ كُنَّا أَنْ نَشَارِفَ نِهَایَةَ هَذَا الْبَحْثِ - أَنْ نَنْهِيَهُ دُونَ التَّنْوِيهِ بِبَعْضِ الْجَوَانِبِ الَّتِي فَاتَتْنَا الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا مِنْ جَوَانِبِ تَفْكِيرِ الْمُعْتَزَلَةِ وَنَظَرِيَّاتِهِمْ وَأَرَائِهِمْ .

وَأَوَّلُ هَذِهِ الْمَسَائِلِ هُوَ مَا كَانَ يَتَجَلَّى بِوُضُوحٍ - خَاصَّةً لَدَى مُتَأَخِّرِي شِيُوخِهِمْ - مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَقْبَلُونَ مُسَلِّمَاتٍ عَامَةً دُونَ مُنَاقَشَتِهَا ، فَإِذَا مَا سَلَمُوا بِهَا رَفَضُوا أَنْ يَسْمُوهَا إِلَّا بِاسْمِهَا الدَّالِّ عَلَى أَنَّهَا قَابِلَةٌ لِلنَّظَرِ وَالنَّقْدِ وَأَنَّهَا لَيْسَتْ شَيْئًا أَزْلِيًّا خَالِدًا ، بَلْ هِيَ مُجَرَّدٌ « دَعَاوَى » قَتَعَرَضَ لِلنَّفْيِ كَمَا قَتَعَرَضَ لِلْإِثْبَاتِ . فَانْ قِيلَ لَهُمْ : لَمْ سَمِيتُمْ هَذِهِ الْوُجُودَ « دَعَاوَى » ؟ ... قَالُوا : لِأَنَّ الدَّعَاوَى كُلَّ خَبَرٍ لَا يَعْلَمُ صَحَّتَهُ وَفُسَادَهُ إِلَّا بِدَلِيلٍ ، بَلْ نَعْلَمُ ذَلِكَ ضَرُورَةً وَهَذَا حَالُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الدَّعَاوَى ، فَيَجِبُ أَنْ تَسْمَى دَعَاوَى لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ صَحَّتَهَا إِلَّا بِدَلِيلٍ ، وَلَآنَ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الدَّعَاوَى خِلَافًا . (١)

هَمْ يَسْمُونُ مُقَدِّمَاتِ أَدْلَتِهِمْ « دَعَاوَى » زِيَادَةً فِي الْحِيطَةِ وَالْحَذَرِ ، إِذَا

(١) تَعْلِيقٌ عَلَى شَرْحِ الْأَصُولِ الْخَمْسَةِ لِلْفَرَزَاذِيِّ ص ٦٥ .

علموا انه من الممكن دحض حجة يعتمدون عليها بحجة أقوى منها ، فسموها (دعوى) قابلة للتمحيص وتقليب الرأي فيها . ثم هم يحاولون اثباتها منطقياً عن طريق افتراض معارضات حتى في ادق الامور وأقربها إلى التسليم والافتناع .

لنقرأ مثلاً هذا النص من (شرح الاصول) بعد أن يبين ان الاستدلال على وجود الله بالاجسام أولى من الاستدلال بالاعراض ، ويشرح لماذا كان هذا التفضيل ، فيقول : « ... وهذه الدلالة مبنية على اربع دعاوى . أحدها ان في الجسم معاني غيره ، الثانية انه يعلم محدثه ، الثالثة ان الجسم لم يخل منها ، الرابعة أن الجسم إذا لم يخل منها ^(١) وجب ان يكون محدثاً مثلها .

ثم يرتب هذه الدعاوى الاربع ؛ الاولى متقدمة ، والرابعة متأخرة . واللذان في الوسط لا ترتب لهما لأنه لا يترتب العلم باحدهما على العلم بالآخرى . أما الاولى فتكون متقدمة لنعرف ان هاهنا معاني محدثة لا يخلو الجسم منها فيكون محدثاً . واما الرابعة فتكون مؤخرة لأنها كلام في أن الجسم إذا لم يخل من هذه المعاني المحدثة وجب ان يكون محدثاً مثلها .

« فما لم نعرف ان هاهنا معاني ، وأنها محدثة ، وان الجسم لم يخل منها لا يمكننا القول بان الجسم إذا لم يخل منها وجب ان يكون محدثاً مثلها . »

تسلسل منطقي متين ، يقرّبه المؤلف بأن يشبهه بكأنا إذا أردنا أن نجتمع بين أصل وفرع بعلة من العلل في حكم من الاحكام ، فلا بد من أن يكون الاصل والفرع والعلة والحكم كله معلوماً لنا ، ليمكننا رد الاصل إلى الفرع وذلك الحكم إلى تلك العلة ..

أما المسألة الثانية التي أود الإشارة إليها في مجال تفكير المعتزلة العقلي

(١) من الحوادث التي هي الاجتماع والافتراق والحركة والسكون ، وما لم يخل من الحوادث يجب ان يكون محدثاً مثلها .

فهي قضية الانصراف إلى تأمل الذات للوصول إلى المعرفة اليقينية، ثم النظر في ما حول الانسان من مظاهر تؤدي إلى هذه المعرفة عن طريق النظر والاستدلال. ^١ نقرأ مثلاً : « ثم سأل رحمه الله (القاضي عبد الجبار) نفسه في بداية الفعل فقال : ما الطريق الذي يكون النظر فيه مؤدياً الى معرفة الله تعالى ؟ وأجاب عنه بأن قال : نفسي وما أشاهده من الاجسام (١) ثم سأل رحمه الله نفسه عن هذا فقال : ومن أين يدل نفسك وأجسام العالم على الله تعالى ؟ وأجاب عنه بأن قال : لأن في حال الكمال لا أقدر على أن اخلق مثلي ولا مثل بعضي ، فعلت أن لي خالقاً ومحيياً ومميتاً هو الله تعالى ، وتفصيل ذلك أن الواحد منا يختص بمعاني هي البيئة والتأليف والتركيب واللحمية والدمية والرطوبة واليبوسة ، وهذه المعاني كلها محدثة وإنها محتاجة إلى محدث ، فإن محدثها لا يجوز أن يكون قادراً بقدره ، بل يجب أن يكون فاعلاً مخالفاً لنا وهو الله تعالى (٢) . ووجه آخر من الاستدلال بأنفسنا وهو ما قد ثبت ان الواحد منا يتنقل في أحوال لا يجوز أن يتنقل فيها إلا بفاعل ومدبر وهو الله تعالى . »

د أما المسألة الثالثة فهي ما يلاحظه الدارس للفكر المعتزلي من اهتمامهم بتحديد المفاهيم ، ونقد اللغة ، نقداً يزيل الالتباس عنها ، او ما يحيط بها من غموض قد يعرقل الوصول الى الحقيقة المنشودة .

(١) بالرجوع إلى القرآن الكريم نجد أنه يدعو الى النظر في النفس لاستخلاص المعرفة (ومن انفسكم أفلا تبصرون) كما يدعو الى التدبر في المشاهدات الحسية المحيطة بنا. ومن العجيب حقاً ان جل الفلاسفة والمفكرين . وأصحاب الرسالات ، لا ينفكون يدعون الانسان الى النظر في نفسه ليحصل له اليقين الذي يبحث عنه ، ويثبت ما هو في ريب منه . ومنذ اسدى سقراط نصيحته الغالية (اعرف نفسك) حتى أثبت ديكارت وجود الله عن طريق الكوجيتو والنظر في النفس، ليتبين انه (يفكر فهو موجود) .. نجد اننا في حاجة مستمرة الى التفكير والتأمل في نفوسنا وذواتنا .

(٢) تحسن الإشارة هنا الى حديث القاضي عبد الجبار عن فكرة الكمال مرات كثيرة كدليل على حدوث الانسان ، لافتقاره إليه ، ص ٦٥ من نفس المصدر .

وقد رأينا اهتمامهم بالتعريفات والحدود ، حتى لا تبقى هناك فرصة لمفسط ينتهزها في جدله ليبطل حجة مجادله .

ورأينا في حديث (الدعاوى) تركيزهم على أداء الكلمة أو الاصطلاح للمعنى المقصود منه ، دون السماح له بأن يخرج الى معان ومفاهيم قد لا تخدم قضية الحق .

وهذا شيء طبيعي في جماعة تأثرت بالمنطق اليوناني ودرسته ، واتخذت من الجدل وسيلة لنشر آرائها ودعوتها ، وما أقرب الشبه هنا بين موقف المعتزلة من المفسطين الاسلاميين ، وموقف سقراط من سفسطائي أثينا ، وبحث هذا الفيلسوف عن المعاني الكلية ، واحتفاله بالحدود والتعريفات .

حتى كلمة (العقل) - وهي رائدتهم في مسيرتهم - ابوا إلا ان يعطوها حقاً مفهوماً محدداً ، فيعمل ابو علي الجبائي تسمية - (العقل) - الذي هو عنده العلم - عقلاً ، بأن الانسان يمنع به نفسه عما لا يمنع المجنون نفسه عنه ، وبأن ذلك مأخوذ عن (عقال البهيم) الذي بمنعه .

وهنا نلتقي بتداخل طريف بين المفاهيم اللغوية والمعاني الفلسفية - ومن قال بأن اللغة ليست تعبيراً عن خلجات النفس ونظرات الفكر ؟ ..

الامر الرابع الذي تظهر فيه قوة المعتزلة العقلية ، واعتدادهم بهذا العقل ، هو عنايتهم باثبات الآراء عن طريق ابطال نقائضها - حتى وان لم يقل أحد بهذه النقائض - عن طريق افتراض من يقول بها :

ففي مسألة اثبات الله واحداً مثلاً يقول القاضي عبد الجبار : « اول ما في ذلك يجب أن نعلم معنى قولنا واحد (١) .

جملة القول في ذلك ؛ ان قولنا (واحد) تستعمل على معنيين ؛ أحدهما أنه لا يتجزأ ولا يتبعض ، والثاني انه على صفات مخصوصة لا يشاركه فيها غيره . واذا قلنا ان الله تعالى واحد فليس المراد به انه لا يتجزأ ولا

(١) لاحظ التدقيق العميق في تحليل المفاهيم - كعادتهم .

يتبع بعض ، وذلك لأننا نؤكد بهذا المدح ، ولا مدح في انه لا يتجزأ ولا يتبع بعض ،
فان الجزء المنفرد لا يتجزأ ولا يتبع بعض ولا مدح له في ذلك . بل اذا قلنا ان
الله تعالى واحد انه مختص بصفات لا يشاركه فيها غيره نفياً وإثباتاً .

واعلم أن من خالف في هذا الباب مخالفة لا يخلو أمره من أن يقول ان
مع الله تعالى قديماً ثانياً يشاركه فيما يستحقه من الصفات أجمع نفياً وإثباتاً ...
وإما ان يقول ان مع الله تعالى قديماً ثانياً يشاركه في بعض صفاته .

أما الأول فلا قائل به ، ولكننا اذا ادعينا أمراً من الامور قررناه
بدلالته .. الخ . (١)

الى هذا الحد وصلت قوة عقل اهل الاعتزال .. الى حد انهم يدعون
الامر ، ولا قائل به يحاجونه ويمجادهم فيه - ويفرضون الفروض ، ثم يعملون
على دحضها وإبطالها .
وبهذا كانت حججهم أقوى ، ودليلهم أصلب ، وبرهانهم أمتن عند الجدل
والكلام .

(١) نفس المصدر السابق .

تأثير نزعة المعتزلة العقلية

تأثير نزعة المعتزلة العقلية

في الأشاعرة ، واهل السنة عامة ، المعاصرين
لهم ومن جاء بعدهم

اتضح لنا مما سبق - عند حديثنا عن انقلاب الاشعري على المعتزلة - ان
أبا الحسن اتخذ موقفاً وسطاً بين أهل السنة والمعتزلة ، موقفاً حاول فيه
التوفيق والتقريب بين المذهبين المتنافرين في كثير من القضايا التي عرضنا لها .
لكننا لم نشر الى تأثير المعتزلة في اتخاذ الاشعري هذه الوجة في مذهبه
الجديد . وقد آن لنا ان نوضح هذا التأثير في الاشاعرة خاصة ، وأهل السنة
بصورة عامة ، حتى نعطي صورة جلية بقدر الامكان عن مدى أثر اهل
الاعتزال .

قلنا ان الاشعري عاش أربعين عاماً طويلة في حجر المعتزلة ، متغذياً
بأفكارهم ، متشرباً لأرائهم . ثم بدا له ان يخرج خليفهم ويقف ضدهم مهاجماً
ومؤازراً أهل السنة من السلفيين .

وبصرف النظر عن مدى صحة الرأي القائل بأن الاشعري ما فعل هذا
الا بعدما رأى من مقدمات انهيار المعتزلة ، ووجوب قيام رجل يحمي (حصن
العقل) من غلبة الرجعية الفكية المنتصرة باتخاذ سبيل وسط ، فانه من

المسلم به - سواء بالنظر الى طريقة تفكير الاشعري او المدة التي قضاهما في حمى الاعتزال - انه لم يتخلص أبداً من تأثير نهج تفكير المعتزلة العقلي ، واحتفاله بالعقل هذا الاحتفال الكبير .

ان اربعين عاماً من التشبع بالمذهب المعتزلي ، والاحتكاك بزعمائه ، لا يمكن التخلص منها ومن آثارها دفعة واحدة .. وهذا ما كان من امر أبي الحسن ، حتى ان اتباع احمد بن حنبل ابوا ان يقبلوه في عودته اليهم ، وهاجموه أقسى هجوم هو وانصاره والقائلين بمذهبه ، ولم ينل الاشعري الخطوة عند المحدثين وأهل السنة عامة الا بعد مرور مدة طويلة تأكدوا فيها من صدق دعوته . ذلك لأن الأشعري كما يقول ابن الجوزي : ظل دوماً معتزلياً ، وهذا ما دفع الحنابلة - بتأثير الثأر القديم بينهم وبين المعتزلة - الى رفضه والهجوم عليه .

ويبدو هذا التأثير المعتزلي بديناً في الاشاعرة حين نلقي نظرة على مقالاتهم في المسائل الكبرى التي كانت مثار جدل وكلام ، من مثل مسألة الصفات ، وكلام الله ، والتأويل ، والفعل .. الخ .

ففي مسألة الصفات مثلاً رفض « الغزالي » أن يكفر المعتزلة لنفيهم الصفات ^(١) ، وكان بعض اهل السنة يكفرونهم به ، وجاء « الباقلاني » ليقول مثل « ابن هاشم الجبائي » بالاحوال ، كما ردوا الصفات إلى سبع فقط ، وقالوا بصفات (أو أسماء) الافعال غير الأزلية ، كالرازق والخالق والمعز والمذل ^(٢) .

وفي مسألة كلام الله قال الاشاعرة إن الحروف والاصوات مخلوقة وهم بهذا اقتربوا من قول المعتزلة قليلاً في مسألة القرآن . كما اهتم الاشاعرة بالتأويل وسمحوا بتأويل الآيات التي تتحدث عن اعضاء

(١) فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة ص ١٣٢ .

(٢) انظر : الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٢٩ .

لله كالوجه واليد بأنها الله نفسه أو قدرته، إلخ .. ونفوا الجهة عن الله تعالى، ونادوا بالتنزيه مما كان ينادي به المعتزلة .

ثم كان أن سمحوا للإنسان بشيء من القدرة على الفعل بنظريتهم في الكسب فقالوا إن للإنسان الإرادة ، والله الاتقان وإيجاد القدرة . وقد كان أهل السنة يرفضون أية (مشاركة) للإنسان في الأفعال ، بل الله عندهم هو الخالق والفاعل في جميع الحالات . إلى غير ذلك من القضايا التي يطول الحديث فيها لو استقصيناها جميعاً ^(١) .

وعلى أي حال فقد ظهرت (بصمات) تفكير المعتزلة واضحة في تفكير الأشاعرة ، حتى « تكلم الناس فيهم بما هو معروف في كتب أهل العلم ونسبوه إلى البدعة وبقايا الاعتزال ^(٢) . »

لقد كان طبيعياً - وقد اعد الأشعري عدته لحرب المعتزلة - أن يتسلح بسلاحهم ، ويتخذ من الأدلة العقلية وسيلة لهدم قلاعهم . وقد كان أهل السنة من قبل الأشعري لا يعتمدون إلا على النقل في أمور الاعتقاد، على حين أخذت الفلسفة توجه أهل الفرق إلى الاعتماد على العقل . فلما أخذ الأشعري في مناظرة المبتدعة بالعقل حفاظاً على أهل السنة جاء انصار مذهبهم من بعده يشبثون عقائدهم بالعقل تدعيماً لها ومنعاً لاثارة الشبه حولها ؟ ^(٣)

« هؤلاء الانصار أنفسهم والتلاميذ - كابن مجاهد - هم الذين أخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني فتصدر الإمامة في طريقتهم وذهبها ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار »، وذلك مثل إثبات الجوهر الفردي، والخلأ ، وأن العرض لا يقوم بالعرض ، وأنه لا يبقى زمانين ... إلخ . ^(٤)

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام لدي بور ص ١١٦ وما بعدها .

(٢) مقدمة ابن تيمية كتاب (مقالات الإسلاميين) لمحي الدين عبد الحميد . ص ٢٥

(٣) الشيخ مصطفى عبد الرازق - تهديد لتاريخ الفلسفة الإسلامية . ص ٢٩٣ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٥ .

ومثل الباقلاني فعل ابن فورك والبغدادى والطبرى والبيهقى والقشيري والجويني والغزالي والشهرستاني وغيرهم ، من تلاميذ الاشعري السنين والذين مكنوا لمذهبه في النفوس والاذهان .

هؤلاء الانصار هم الذين ألفوا الكتب والرسائل في الدعوة للمذهب الجديد وتبليغه ، متخذين من سلاح المعتزلة - الذي عرفوه عن طريق الاشعري - والمتمثل في استعمال العقل والنظر ، وسيلة لبلوغ هدفهم المنشود .

وكما حدث أن أخذ المعتزلة - في بدايتهم - عن خصومهم من أهل الفلسفة والديانات طريقتهم في الجدل والنقاش ، كذلك جرى بالنسبة لخصوم المعتزلة من الحنابلة والاشاعرة وأهل السنة عموماً . فانبرى الحارث المحاسبي (+ ٢٤٣) ليضع كتاباً في الرد على المعتزلة بطريقتهم ، وكان أبو حنيفة أول من اتخذ طريق المعتزلة في الدفاع عن الدين وخاض في علم الكلام - الذي كان محرماً الخوض فيه - ووضع كتابه (الفقه الاكبر) تمييزاً له عن الفقه العادي .

ويكفي أن المعتزلة أثاروا من المسائل ما كان « سبباً لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على أهل العقائد ، دفعاً في صدور هذه البدع » (١) « وهذا اجتهد بقي ثمره حتى الآن ، إذ استمد أهل السنة منه في كل باب عند الخوض في مناسبات هذه المسائل ولو لم تكن المعتزلة مهدت الطريق لما كان لأهل السنة تقدم في هذا الفن مثل تقدمهم (٢) » .

(١) نفس المصدر ص ٤٦٤

(٢) نيرج : في مقدمته لكتاب (الانتصار) ص ٦

نظرة اخيرة

لقد احتل اهل العدل والتوحيد في تاريخ الفكر الاسلامي مكانة سامقة .
تضافرت عوامل الرجعية ، والحكم الجاهل ، والتزمت العاتي ، وغوغائية
العامة على انكارها والتقليل من شأنها .

لكن اثر هذه المدرسة العظيمة كان واضحاً - بطريق مباشر او غير مباشر -
في المدارس التي قامت على أنقاضها كالأشعرية والزيدية الشيعية . وظهر هذا
الاثر في نمط الموضوعات التي تبحث ، وفي اسلوب معالجتها ، بل وفي كثير
من الحلول التي قدمت لها .

وكان اهل الاعتزال يمثلون - بحق - التيار التحرري في الفكر الاسلامي
وهم رغم أخطائهم القليلة - كانوا يهدفون الى خير الاسلام ورفع مكانته
والانتصار له .

وكانت شخصيات رجال الاعتزال - من امثال واصل والعلاف والنظام
والجاحظ - علامات بارزة في تاريخ الفكر الاسلامي نعتز بها ونفخر وكانت
النزعة العقلية المميزة لتفكيرهم مصدر خير كثير للاسلام والمسلمين . وإنه لحق
أن يقال انه لم يكن من مصلحة الاسلام موت المعتزلة ، فقد كانوا نمطاً من
أهل الفكر الذين يكدون عقولهم في سبيل الوصول الى الحقيقة ، ولا يسلمون
أنفسهم ريشة في مهب ريح القدر يلعب بها كما يشاء بل يثبتون لانفسهم ،
ولغيرهم ، ما داموا قد 'خلقوا' ، وجوداً يطلبونه متكاملًا ومعقولاً .

المَصَادِرُ وَالْمَرَاجِعُ

المصادر والمراجع

- ١- المجموع في المحيط بالتكليف للقاضي عبد الجبار بن احمد، جمع، ابن متويه مخطوط بدار الكتب للقومية بالقاهرة تحت رقم عقائد تيمورية ٣٥٧ ومخطوط مصور بنفس الدار تحت رقم ب / ٢٩٣١٤ .
- ٢- تعليق على شرح الاصول الخمسة للقاضي عبد الجبار بن احمد المعتزلي المتوفي سنة ٤١٥ هـ. تأليف ابن محمد اسماعيل بن علي الفرزاذي . تاريخ المخطوط ٥٤٣ هـ. تحت رقم د / ٢٧٨٠٠ بدار الكتب / مخطوط مصور .
- ٣- الانتصار لابي الحسين الخياط . تحقيق الدكتور نيهرج دار الكتب سنة ١٩٢٥
- ٤- المواقف لعبد الرحمن الايجي مع شروح / طبعة قديمة بدار الطباعة بدون تاريخ
- ٥- الارشاد لأمام الحرمين الجويني / مكتبة الخانجي سنة ١٩٥٠
- ٦- التبصير في الدين لأبي مظفر الاسفرايني / بتحقيق زاهد الكوثري - الخانجي سنة ١٩٥٥
- ٧- الأنصاف لأبي بكر الباقلاني / بتحقيق زاهد الكوثري - الخانجي سنة ١٩٦٣

- ٨- الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي / بتحقيق محمد عبد الحميد -
مطبعة صبيح
- ٩- الاقتصاد في الاعتقاد لأبي حامد الغزالي / محقق - مطبعة النور بأنقرة
سنة ١٩٦٢
- ١٠- مقالات الاسلاميين لأبي الحسن الاشعري / تحقيق محمد عبد الحميد -
مكتبة النهضة المصرية .
- ١١- نهاية الاقدام في علم الكلام لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني / تحرير
وتصحيح الفريد جيوم
- ١٢- الملل والنحل للشهرستاني أيضاً / تخريج محمد بدران ط أولى - مطبعة
الأزهر
- ١٣- التمهيد للباقلاني (أبي بكر) - تصحيح الأب رتشارد مكارثي
اليسوعي - بيروت سنة ١٩٥٧
- ١٤- مقدمة ابن خلدون ط مصطفى محمد (المكتبة التجارية)
- ١٥- ابراهيم بن سيار النظام ؛ وآراؤه الكلامية الفلسفية للدكتور محمد
عبد الهادي ابي ريدة ط اولى / لجنة التأليف والترجمة والنشر
سنة ١٩٤٦ .
- ١٦- تاريخ الفلسفة في الاسلام لدى بور - ترجمة الدكتور أبو ريدة ط
رابعة سنة ١٩٥٧
- ١٧- تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق ط ثانية
لجنة التأليف سنة ١٩٥٩
- ١٨- نشأة التفكير الفلسفي في الاسلام للدكتور علي سامي النشار
الجزء الاول ط ثانية سنة ١٩٦٢ .
- ١٩- المعتزلة لزهدى حسن جار الله مطبعة مصر سنة ١٩٤٧ .
- ٢٠- تاريخ الفرق الاسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين / تأليف علي
مصطفى الفرابي مطبعة السعادة سنة ١٩٤٨ .

٢١- الجانب الآلهي من التفكير الاسلامي الدكتور محمد البهي .

٢٢- فجر الاسلام ط ثانية
٢٣- ضحى الاسلام ط خامسة
٢٤- ظهر الاسلام ط ثانية
للدكتور احمد امين .

٢٥- ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM

(مقالة المعتزلة MU,TAZILA بقلم نيبرج) .

٢٦- الترجمة
CONCISE ENCY. OF WESTERN
PHILOSOPHY AND PHILOSOPHERS

بعنوان : (الموسوعة الفلسفية المختصرة) القاهرة سنة ١٩٦٣ .

٢٧- A HISTORY OF ENGLISH PHILOSOPHY

تأليف : و. ر. سورلي كمبردج سنة ١٩٥١

٢٨- محاضرات في علم الكلام القاها الدكتور محمد عبد الهادي ابو ريدة
على طلبة قسم الفلسفة بكلية آداب الجامعة الليبية - بنغازي سنة
١٩٥٩ - ١٩٦٠ .

محتويات الكتاب

صفحة	
٧	تمهيد
٩	مقدمة
١٣	بدايات التفكير العقلي في الاسلام
٢١	البدايات الأولى للمعتزلة
٢٩	المؤثرات في اتجاهات المعتزلة العقلية
٤٧	غاية المعتزلة من الاتجاه العقلي في علم الكلام
٥٣	مشكلة عقلية - دينية - عقلية
٧٥	الديانة العقلية
٩٥	إنقلاب الاشعري
١٠١	بعض مواقف المعتزلة العقلية
١٠٩	نظرة إجمالية
١١٧	تأثير نزعة المعتزلة العقلية
١٢٣	نظرة أخيرة
١٢٥	المصادر والمراجع

« تصويبات »

وقعت بعض أخطاء مطبعية نعتذر عنها ونرجو القارئ أن يصوبها كما هي مثبتة فيما يلي . كما نرجو أن يقرأ المقدمة (ص ٩) قبل التمهيد (ص ٧) :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧	١٨	عاصر	عامر
٢٤	٥	طاسن	طاش
٢٤	٧	ابن	أبي
٢٥	١	يدعوانه	يدعوان
٣١	١١	إشارة	إشادة
٣٢	١	ميثا فيزيكي	ميثا فيزيقي
٣٤	٧	فيفكر	فيذكر
٣٥	١٧	ابن	أبي
٣٦	١٣	المولي	المعتزلي
٣٨	٥	أصل	أهل
٣٩	١	المعتمد	المعتمر
٣٩	١٤	ابن	أبي
٤٠	١٠	المحصنة	المحضة
٤٠	١٢	الخالدين	الخلدين
٤٥	١١	الشهرستان	الشهرستاني
٤٥	١١	كان	بان
٥٦	١٩	حكمة	كلمة
٥٩	٣	وينظرون	ينظرون
١٠	١٠	رفع	دفع
٦٢	١٨	نهى الله	نهى الله عنه
٦٦	١٠	فذهب	فمذهب
٦٦	٢٣ (هامش)	نهاية الكلام	نهاية الإقدام
٦٨	٢	يثبت	يثيب
٧١	١٥	تعرف	نعرف

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧٢	١٣	وليس	ليس
٧٣	٣١	قل	قال
٧٩	٦	فوارق	خوارق
٧٩	٢٤ هامش	يكون	لكون
٨٥	١١	الطلقة	المطلقة
٨٧	١	العلاق	العلاف
٩١	٤	وان	والا
٩٣	١١	الخير	أن الخير
٩٧	٩	كالكوامية	كالكرامية
٩٨	٤	والدين	والديني
١٠٦	٩	المتعاون	التفاوت
١٠٧	١١	(الأنه لا يمكن لاية قوة من الارض)	(اذ انه لا يمكن لاي قوة في الارض
١١١	١١	الوجود	ا اوجوده
١١٤	١٣	عقال البصير	عقال البصير
١١٩	١٦	الفكية	الفكرية
١٢٠	١٧	ابن هاشم	ابي هاشم
١٢٨	٢٥	إفرايى	الغرايى